صلاح والى

فتنة الأسْرِ

رواية

ميريت للنشر والمعلومات
القاهرة ٢٠٠٣

إهداء

إلى / سعاد حسني
(يا ورد هوّن عليك)

فتنة الأسْرِ

فتنة الأسْرِ

صلاح والى

الطبعة الأولى، ٢٠٠٣
(c) ميريت للنشر والمعلومات
٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
merit56 @ hotmail. com

الغلاف : **أحمد اللباد**

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٣٠٤٦

الترقيم الدولى: **977-351-091-3**

(١)

كـــان يقف على باب الكون يمسك فى يده زهرة جميلة بســـاق طويل لها تويج كبير كثير الألوان ولها رائحة مستقبلية، وكان ينظر إلى البعيد ويبتسم لشيء، ما بينما تدوى خلفه طبول الآخـــرة علـــى بوابـــات جهنم بدوى مدبب يدخل فى عمق كل الأشياء باختراق عظيم مؤلم، بينما الفراغ الذى ينظر إليه يموج بدخان كثيف يتشكل عوالم وهو ينتظر ما يلائمه ليهديه زهرته.

كنت أظن ذلك ولكنه كان غير ذلك ، ربما ،

وربما أيضا كان كذلك .

ولكنه أخذ خطوة للأمام وانحنى وقبّل الزهرة وابتسم، ووقـــف والطبول ما تزال تدق فى تتابع تاركة خلفها دوائر من الحنيـــن والخـــوف الموجع ، بينما كانت تُسمع خطوات عميقة تسير بانتظام فى كل اتجاه، وصوت تنفس قوى ربما يصدر من كل ما يحتوى هذا المشهد بعمقه غير المدرك فى مساحات من المجهول وعدم المعرفة وعدم الإحاطة.

كـــان فى ملابسه الكاملة ربما خارجا إلى سهرة ما ، وكان العرق يتصبب من سرواله على الأرض ، ربما كان دهنه يســيل، وكنـــت أتوقع أن يقع من ملابسه أو يتلاشى أو يغيّر ابتســامته التى لا تعنى شيئا وتعنى كل شيء ، كان ينظر فى البعــيد ربما لا ينظر إلىّ شيء، ولكنك بالتأكيد لا تستطيع أن تـــتجاهله لأســباب كثــيرة منها أنه وحيد وحدة مطلقة، وثابت ويغمره الأمل ولديه ثقة عالية ربما ، أو يأس قاتل ربما ، لكنه دائما أمامك ومبتسم، ولا يلتفت، ولا أحد خلافه، وهو يشبه كل آدمـــى فـــى تكوينه ولكنه غريب لا أعرف كيف؟ وربما كان جمـــيلا ، لكـــنه مختلف ، وغير معنى بالآخرين لأنه ببساطة مكتف بذاته، لاشيء فى المشهد كله إلا هو ووحدته القاتلة.

ربما كان ينتظر رسائل من الماضى أومن المستقبل!

قلـــت :- بالتأكـــيد لا يراني، ولكنه على الأقل يسمع ويحس ربما بوقع خطواتى أو تنفسي.

لـــم يكـــن أمامه شيء ليرى أو خلفه شيء يُنتظر، أو المشهد يحتمل الانتظار.

اقتربتُ منه وحدّقتُ فيه ولكنه لم يتغيّر ، مرّرت يدىَ أمام عينيه لكنه لم يتحرك أو يرمش !!

قلت فى نفسى : هو أعمى تماماً، فلأساعده

انطلـــق صوت حاسم ومفاجئ وعلى قدر سمعى فقط :

لا.

نظـــرت فـــي كـــل اتجاه لم يكن هناك ما ينظر إليه، فنظرت إليه لكنه كان على حاله لا يريم!

قـــال : الحمـــد الله الذى خلق العبقرى وألهمه اختراع المورفين والبنج.

تخيلت أننى سمعت شيئا ولكنه كان كمن يفكر بصوت عـــال ، كانـــت صـــفحات رأسه مفرودة أمام الأكوان تعرض كشاشـــات العرض محتويات من أفلام كبيرة، رأيته فيها وهو موظـــف فى الضرائب يُخرج من مكتبه بعد التوقيع بالحضور لفـــة بهـــا سندوتشـــات الفول والطعمية والباذنجان والبطاطس والمخللات ويأكل ، ثم يتلوى من الألم وعندما يتجمع حوله من هـــم زمـــلاء أو على شاكلته يطمئنهم أنها الزائدة الدودية وأنها تتعـــبه عقب كل أكلة ولكنها تنام مرة أخرى ، وفى ليال كثيرة تجعله لا ينام، ورفض بشكل قاطع أن يبلغ المستشفى أو يذهب لإجـــرائها فـــي أى مكان ، وتدور الأيام وتسير لقطات كثيرة وأراه فى المستشفى خارجا من دوامة المخدر ويتناهى إلىّ نفس الصـــوت: الحمد لله الذى خلق العبقرى الذى اخترع المورفين والبنج.

قلت فى نفسى وأنا كثير القول لنفسى لأنى لا أجد مكاناً أضع فيه ثقتى فليس هناك بشكل مطلق شيء واحد جيد ، ولكن كل شيء نسبى بدءاً بالحقيقة وانتهاء بالشرف .

قلت لنفسى :- غير معقول أنه لا يوجد فى كل هذا إلا نحن فقط !!

ولما كان يواجهنى تماما ويتعدانى بنظراته شككت فى شيء، ولكن هناك فروق كثيرة .

جذب انتباهى أن جيب سترته به كتاب !

قلت :- كتاب وسط هذا ؟

امــتدت يــدى رغما عنى وسلَتُ الكتاب من جيبه كما تُســلَت الشــعرة من العجينة ، قلبت الكتاب واهتممت بإخراجه والقطع، ونوع الورق ، وبنط الكتابة ، ورائحة الحبر، لكن كل ذلك كان هباء .

فالكتاب جلدى الغلاف وغير مكتوب عليه إلا (الكامن فــى العمــق) ، والورق جلدى مدون عليه بأقلام البسط وبحبر يتراوح تكوينه بين دم الغزال والقرض بالصمغ ، ولونه أحمر يلمــع لــيزغلل العين فكأنك تقرأ ما تريد أو ما يدور بخلدك ، ولكــن عندما تتأمل الكتابة تجد أنها ربما تتحرك أو تتماوج أو تحتها شاشة عرض تريك ما هو مكتوب، الجزء الأول مكتوب تحــت عــنوان //عبر المرآة فى الداخل// ، انتشاء بالأنا العليا ودحضـــا للعقل أو أى عقال يعقل الأمور فيجعل المتكلم جبانا خائفــا على شيء ما، كالوجاهة، وحسن السمعة ، والآخرين، وكل ما هو ليس حقيقيا .

عــندما واجهــت الأوراق البيضاء لم يكن فى بالى أن أدون أى شيء ، وكنت قد اخترت مكتبى الخشبى القديم حبا فى ملمس الخشب ، أو ربما لأنه أغلى ما اقتنيت فجلست وحيدا فى العمــل وكانــت نوبة النوباتجية الأسبوعية الخاصة بى ، ولما كنــت لم أتذوق طعاما قط من يومين أو أكثر فأنا آكل بالصدفة

بعدما تخلصت من كل ما يربطني بالأرض والآخرين، فأنا ضد الامـــتلاك والملكية، وضد المشاع في رأسي وجسدي وما دون ذلك فلمن يشاء حتى لو كان يملك الكثير.

وضعت الأوراق – أمامي

// ظهرت صورته تحت النص وهو جالس على مكتبه يتلوى مـــن الألـــم وقد أحنى رأسه وأمسك بالمكتب محتضنا أو مرميا عليه، ولكن ليست أمامه أى أوراق //

كـــانوا قد قالوا لى فى أذنى عندما تعجز عن البوح أو التدويـــن ضـــع الأوراق فـــى درج المكتب الأيمن واحتضن المكتـــب وســـنقوم بالتدوين نيابة عنك، لهذا وضعت الأوراق بـــالدرج واحتضـــنت المكتـــب ، هل كنت انتظر الرسائل من الماضى لأعرف ما فاتنى فَهْمُهُ فأفهم المستقبل؟.

// ظهرت صورته وهو يهتز من الألم ربما مريضاً ويتلوى، قلـــت ربمـــا أكـــل الفول والطعمية ولكنى تذكرت أنه لم يأكل من مدة طويلة، وكذلك أنا .//

كانـــت الاهتزازات التى حاصرتنى تعصرني، وأحس أنـــنى أسيل على المكتب رغم أنهم قالوا لى لقد اخترناك ونحن نـــريد أن نساعدك، نحن حولك وحولكم لكن أنتم لا تساعدوننا وأعمالكم رديئة جدا، وأنتم أقوياء ولكن لا نعرف سبب ضعفكم فى المواقف، وعدم انتظامكم فى السير ، ألستم المسيطرين على ما هو دونكم ؟ فلماذا تَستَعْبِدُونَ بعضكم ؟ وتقتلون، وذلك شيء فظيع ،

قلـــت :- هــل يمكـــن أن أتراجع عن موقفى وأسحب أوراقى من الدرج؟

قـــالوا :- نحـــن لم نطلب منك هذا، فقط قلنا لك على الطـــريقة وأنـــت الـــذى اخـــترت، وطالما بدأت فلا سبيل إلى التراجع، ولو امتنعت فسنكلمك فى كل مكان ، ولو استمر حالك معـــنا موافقا سنكشف لك كل شيءٍ عن كل شيء ، بشرط ألا تقول أو تنبس بكلمة واحدة.

// مـــازال يـــتلوى ويقوم وهو ممسك بالمكتب ويقعد والعرق الغزير يسيل على الأرض بركا وسيولا//

[أن تستغنى عن كل شيء هو أن تملك كل شيء .

يمكنك فعل أى شيء فى الشارع فما اخترعت الحوائط إلا لتدارى ما هو غير صحيح ، أو تريدون إخفاءه ، لماذا تشم الوردة أمام الناس .

الوردة هى المعجزة وهى البدء والباقى حادث .

حاســـة الشم الوحيدة التى لا تستخدم بشكل حقيقى ولا تعرفون استخدامها ، ومن تنبه لها لم يستخدمها بحقها.

العيون...!! تتكلمون كثيرا عن العيون ولكن لا تعرفون عنها شيئا ، مثلا متى تَراك فى عيون الحب أو الحسد؟

متى ترى وأنت مغمض العينين فى مكان بعيد ما تريد؟

أنـــت تعـــرف أن المرأة التى كانت تصعد السلم من عام وأنت تصــــعد خلفهـــا تتأمل مؤخرتها أنها ليست من العمارة ، وأنت مـــتأكد أنها صاعدة لشخص ما، وكنت تود أن تكلمها أو تلفت نظـــرها، ولكـــن لـــم يحدث إلا فى عقل بالك، رغم أنها كانت

تـــراك، والدليل أنها دقت بابك بعد دخولك وتوجهَتْ فورا إلى غرفة النوم عارية ومع ذلك أخذتك المفاجأة ؟

أى مفاجأة ؟ أليس هذا ما تتمناه؟

وعندما جئنا للفعل فلم تفعل وظهرت على حقيقتك أنك مقهور ولا تستطيع أن تفعل أى شيء، حتى هذا إلا إذا أمرتك زوجتك التى لا تحبها وتخاف منها وأنت قادر على إيذائها كما تقول للناس!

ولم تفعل إلا عندما نادت عليك، وماذا فعلت ؟ لن نقول فأنت تعرف، أنت تعرف،

كنـــت تتعلل بالخوف من قدوم زوجتك أو أولادك رغم أنك تعرف أنهم لن يحضروا للبيت لأنه لا زوجة لك ولا أولاد، غادرتْك،

وعـــدت تختـــبر قوتك فوجدت أنك بخير ولمت نفسك كثيرا وتمنيت حضورها ثم رافقتك فى الخيال حتى وأنت ...

ألـــيس هـــذا ما كنت تود أن تقوله لرئيسك فى العمل الأستاذ عبد القادر الأسد ؟؟

وأنت عرفت هذا من صديقه الصدوق الذى باح لك ليلة لم يجد مكانا ينام فيه فنام عندك ، وقلت فى نفسك أنه متسول ، وأكملت كيف يعيش هؤلاء الناس ؟

هو أفضل منك لأنه لا يكذب أبدا وأنت تعرف ذلك] .

* * *

البوح من الحصار والوقوع فى براثن نعى الذات التى عـــادة مـــا تعمى عن أخطائها ، وتلوم الآخرين ولاتلوم نفسها، صاعدة بقدرها إلى آفاق غير مرجوة ليست من حقها ولم تعمل لها ، وربما لا تعرفها وليست تعزية عن شيء مرجو بُذلتْ فى ســبيله الوسيلة واتخذتْ الأسباب ولم يتحقق ، ولكنه نعى كنعى الأحـــياء للأمـــوات، والأمـــوات يضحكون ويهزءون بهم وهم يحسون فجيعتهم فى أنفسهم.

الصـــمت درجـــة من درجات الصعود إلى علو الهمة واختصـــار الوقت ، ومحو مدونة الكلام، وترفعٌ فوق كل شيء حـــتى يبدو كل شيء أنه صغار ، فلا تملك، ولا ربطت رقبتك بمـــا يذلـــك ويدنـــيك من الرعب ، فأنت لا تملك ما يطمع فيه الآخرون، فلن تخاف من الآخرين ، وسيتسع بساط الحب حتى يســـع الجمـــيع ، وكلما تنازلت عن شيء وودعته أبديا ارتقيت درجة حتى تودع الحياة وأنت فيها، فتزداد درجات ، بأنك الذى لا يريد رغم أن الكل مجبول على الأخذ .

ألـــم تـــرَ إلـــى الذى يعطى ، يصير فضله أكبر وقمة العطـــاء ليســـت الحياة ، فمن يعطِ الحياة يطلب الخلود، أليس الجـــزاء مـــن جنس العمل؟ ولكن ودع الحياة وأنت عليها ولا تطلـــب شـــيئا من أحد، لأنك إن انحنيت تأخذ، سقط قلبك تحت حذاء الآخرين.

فالقلب مرتبط بالإرادة، والقلب صنو الفؤاد، وهو سريع التعلق ، فسيعلق بحذاء من أعطاك فلا تقوم لك قائمة، ولا ترفع رأسك إلا بعد أن تغادر هذه الحياة مطروداً منها منحنيا.

ســامح، أعــف ، إصــفح فتعلو، وهم عندما يقرءون ســيقولون لــك أو لغيرك بنوع من الحكمة المغرورة التى هى بنت الجهل لقد قرءوا هذا فى الحكم القديمة ، صدقنى لم يقرءوا حتى أسماءهم وهم أجهل من المجهول ، وهم قوم بله يستحقون الشــفقة والــرحمة، فارحمهم طالما أنهم لا يرحمون أنفسهم ، وتــأكد بعدمــا يقرءون هذا ويقولون ذلك، وعندما يجلسون مع أنفسهم ولو فى انتظار النوم سيقول الجزء الباقى من ضمائرهم هو على حق، ونحن بله وكذابون،

هل تريد أكثر من هذا ؟

فقط لأنك تركت كل شيء واحتميت بالأنا غير المقيدة بالعقل.

أليس هذا ما قرأته فى مذكرات أحمد المصرى ؟

لماذا لم تتذكره ولم تعمل به أبدا؟

* * *

ملمــس ناعم وكاتم للصوت تدخله ويدخلك مستنيما له إنه الحزن وهو غير الشجن.

أمـــا الشجن فهو حالة من حالة التعويض عن شيء ما وكأنك فقدت أعز ما لديك / رغم عدم وجود شيء لديك لتفقده / والــبكاء الصامت على مجد ضائع تتوهمه ، وهو ما لم يحدث فـــى يـــوم من الأيام ، لكن من أين جاء هذا الوهم ؟ ربما حالة معاشـــة من حالات أحلام اليقظة ظلت نائمة بعيدا فى ركن ما وأنـــت نسيتها، ولكنها ظلت تنمو متدرجة فى أشد حالات عدم الارتــباط بالواقع وانحطاط مستوى النفس والرغبة الشديدة فى الــتملك، وإلا قـــل لى طالما أنت لا تملك شيئا كما اتفقنا فلماذا الحزن والشجن ، هل لأنك أحببت ؟

ليســـت هناك حالة حب واحدة مبنية على العطاء لكنها مبنـــية علـــى الأخذ ، فالذى يحب الجميلة يحب أن يتملك هذه الجميلة فتكون له وحده ، ويخرج على الناس وهى فى يده على أروع ما تكون الأبهة ليقول للناس أنا أمتلكها وأرى منها ما لا يراه الآخرون.

والذى يحبسها فى البيت تحت أى مسمى ويتخذ تدابير الحمايـــة، فهـــو ضعيف يريد لفت نظر الناس أن تلك الوسائل لحماية شيء لن يتوفر لأحد منكم ،

المسألة ببساطة لو مبنية على الاقتناع كان عاش معها بلا تدابير، لأنها مادامت اختارته واختارها فإن العطاء من كل مـــنهما ســـيجعل كلاً منهما لا يرى فى هذا الكون إلا صاحبه، وستكون كل تدابير الأمن هذه داخلية فى كل منهما.

أليس هذا ما دار بخلدك يوم السبت الموافق السابع من الشـــهر الثانى عشر ، لتقوله للسيدة قوت القلوب وهى تتحدث عـــن زوجها كما أنك كنت تشتهيها وأنت تظهر عدم إصغائك للكلام ،

أليست عمتك ؟؟؟]

كانت تلك الصفحات الكثيرة التى مرت أمامى فى كتابه الجلدى قـــد جعلتنى نزقا منزلقا فى فورة من الغليان ومن الضيق ومن الإحساس بضياع الوقت (الوقت ؟)،

قـــررت (وإن كنت لا أملك القرار ، ولكنى قررت) أن أتركه وأمضى ، ولكن إلى أين وليس هنا غيرنا؟

حالـــة مـــن الحيرة ومن الشغف بالفرجة ومن الخوف والرغـــبة العارمـــة فى الصراخ أو الضحك أو أن أبدو هادئا رزيـــنا ، وأحسست أننى مرتبط به كأنما هناك وصلة كهربائية بينى وبينه، كما أن ما مضى من هذه الصفحات يخصنى أيضا ربما، وربما سمعت به.

كانـــت المشاهد تتتابع فى رأسه وكتابه بشكل جذاب ، نعـــم ، نعـــم جذاب ، ما الدهشة فى ذلك جذاب/ وأنا وهو فقط وخـــوف يلف المكان ولا مكان ، وأمامك سينما/ فى كل لحظة تحس أنه من المحتمل أن ينفجر فيك/ عقل هذا الرجل أو يموت هذا الرجل من الألم ، وبقدر بعدك عن الحدث بقدر قربك منه ، وهذا العرض المجانى لم يخطر على بال كل العباقرة فكيف لا يكون جذابا؟

كانت الرياح تهدر فوق بحر مضطرب وفى وسط هذه الــرياح سفينة تتأرجح ، فعلا تتأرجح كأنما سكران يخرج من/ المستنقع / بعد أن دخله لأول مرة وأفرط حتى سأله حماد عن اسمه ، لأ ، ليس حماد عجرد يا أخى ،

أنـــا مـــرعوب جـــدا والمشاهد تشدنى ، سيف طويل يخترق بطن بنت جميلة والدم يغرق جمجمة هذا الرجل ويسيل على المكتب فأمد يدى ألمسه فأجده دما!،،

كنـــت قـــد تركـــت الكتاب وأتفرج على رأس الرجل والعـــرض الســـينمائى بهـــا على أشده ، خفت من منظر الدم المفاجئ

فصرخت

ـــــ يا لهوي

ـــــ طلباتك يا أستاذ؟

ـــــ نعم؟

ـــــ أنا أسألك فأنت أمامى من نصف ساعة ولـــم تـــتكلم فقـــط تحدق فى وجهى وتتتابك حالات ، هل أنت مريض ؟

ـــــ جدا ، هل يمكننى أن أجلس ؟

ـــــ تفضل

كـــان هو ، جلست بجواره وأملت رأسى على المكتب فخفت أن يرى برأسى ما رأيت برأسه فاعتدلت فأمسك يدى

ـــــ خير؟

كانت يده بارده والعرق يتصبب منها وكان مضطربا، وكنــت أسأل نفسى طوال الوقت هل أنا مريض؟ يعنى لا (عبد الله عسكر) ولا (لاكان) ولا (الحاج محمد عبد الحميد فرويد) ولا (صـــفوان) ولا أى مخلــوق فى العالم قال كلمة فى هذا الاتجـــاه، حتى تصير لكلماته المدونة دلالة معرفية تتعانق مع هـــذه الحالة وتفسرها أو حتى تدمرها ، قلت فى نفسى صبرك على يا علم النفس ،

كَرَّرَ الكلمات التى أحسها تخرج من جسدى

ـــــــ تشرب شاى ؟

ـــــ ياريت ، وتتركنى خمس دقائق بدون أسئلة

ــــــــــ حاضر

قـــام من مكانه فأخذت مساحة أكبر من التفكير وبرز السؤال الكلب السعران

// لمـــاذا كلما رأيت هذا البنى آدم بالذات يحدث معى ما حدث الآن ..؟//

أفقـــت من ذهولى (كأنما ذهبت إلى بلد آخر ولكن بلا ناس وكأنهـــا خلـــت مـــن المخلوقات وليس فيها صريخ ابن يومين) كأنما انهمـــرت مـــن كون آخر خالٍ تماماً ، ولا أى صوى ، وكوب الشـــاى أمامى فارغ ، / بصيتْ قدامى فلقيت كوباية الشاى فاضية ، ولا مكتب ولكن ناس كعدد حبات الرمال بالضبط بيصون علينا، ناس ترش الملح ما ينزلش ، وأنا جالس منهك ومنهار ولا أعرف

لمـــاذا ، وأنا واقع من طولى لايسندنى إلا خشب الكرسي، زى شوال الملح ومبهدل كفردة شراب قديم/.

كنت أسمع طوال الوقت الصوت الآخر يردد ما يجول فى خاطرى من الكلام كما سبق، إلى أن قال لى : كيف الحال؟

ـــــ من أنت؟

ـــــ ومن أنت ، ما جئت إلى هنا لتسأل ، هل لك أى طلب فى المصلحة ، أنا لا أريد معرفة ظروفك ، هل معك نقود أم تلزمك نقود؟؟

كنت أنظر إليه وكلانا يتحاشى النظر فى عيون الآخر، كانت جبهته عريضة وشعره اختلط أبيضه بأسوده وتأخر الشعر متراجعا إلى الخلف تاركا انخفاضا ملحوظا ليقول والله العظيم كان هنا شعر ولكن.. ، الموقف لايحتمل الوصف ، أمسكنى من يـــدى فأحسســـت أنـــنى أمسك يدي، وكان لا ينظر إلى ولكن تخترمـــنى نظـــرته وتعبر إلى الجهة الأخرى أمامه مباشرة ، وخفـــت أن أنظر فأجد أنه ليس عنده أمام ، فبكيت وقمت واقفا وجلست وبحثت عن منديل وقلت: ليس لى أى مصلحة فى هذه المصلحة، أو فى أى مصلحة.

قال : هذا موعدنا وأن يحشر الناس غدا فى عرائهم.

قلـــت : أنـــا لا أعرفك ولا أنت تعرفنى وكثرة الأسئلة مضيعة للوقت

ضـــحك بصـــوت عـــال ، فبانت أسنانه وضروسه ، تذكرت ما فعله بضروسى اليمنى طبيب الأسنان ، فذهلت (هل

هـــذه الكلمة مناسبة فى هذا المكان) لم أذهل تماما ولكن حدث معى ماتفهمه الآن،

كان قد أطبق فمه ونظر لأول مرة فى عينى فوجدتنى جالســا مبتســما فى عينيه صغير السن عديم الخبرة غادرنى الشــعر الأبيض الذى أحبه والذى رد لى اعتبارى أمام الناس ، حيث كنت بعد تخرجى بخمس عشرة سنة أعامل كأننى طالب بالجامعة !

ســمعت همســا (تخــاف على الوجاهة ولم تستوعب الدرس ، سبق أن حذرناك من حب التملك والحرص على المتع الزائلة)

هذا كان فى عقله هو

قال لى : أى خدمة ؟

قمت من مكانى متجها إلى الخارج ، كانت أقدامى تدب فـــى يـــوم شـــتوى ضباب كله، وربما الأرض ضباب تكثف فصارت ثلوجا (أليس هذا الشتاء غريباً على بيئتى ؟)

فـــى نهاية المشهد تذكرت أننى فى ألمانيا ربما فى يوم شديد الصقيع، عندما كنت أصر على الذهاب لصلاة الفجر لكن لـــم أقـــدر على التذكر فقد وجدته فى نهاية المشهد واقفا يبتسم ويـــنظر إلى الأمام كأنما ينتظر شخصا ما ، ممسكا بيده وردة حمـــراء طويلة الساق، ويلبس بدلته بنية اللون ورباط عنقه فى الوسط تماما (لست أدرى ما حدث لي).

(٢)

كـــان بـــودى أن أمسك هذا المشهد فى قبضة يدى ثم أخرجه جزءا جزءا وأتأمله ثم أضعه أمامى لدراسته ، وكنت قد ســمعت عن مراكز الدراسات التى عملت بها لبعض الوقت ، ولســت أدرى (هل هذه الكلمة صحيحة ، أقصد تعبر عما أريد بالضــبط) هل عملت فى أحد هذه المراكز أم لا ؟، فقد وجدت نفسى وقد اختمرت الفكرة فى رأسى أنهض من نومى ،// ولم يكن يلفنى نوم لأنهض منه فأنا عادة لا أنام لكن أفكر ، والحق يقال لا أعرف فى ماذا أفكر ولكننى أفكر، ولست أفكر من باب إثــبات الوجود فهناك آلاف الطرق لإثبات أنك موجود، ولكن أغــرق دائمــا فـــى حالات من التفكير العميق، وتتجلى أمامى ملاييـــن المشاهد التى ربما عشتها قبل الآن ، أو ربما تأتى بعد الآن ، ولكن عادة لا تأتى // كأن مدينة دخلتك قبل الآن وأنت دلالة أو ربما مستقبلاً يأتى من الماضى // وتوجهت إلى مركز أكاد أعرفه ودخلت إلى مكتب فلم أجد أحداً فيه ولكن مرق من جــوارى شخص وجلس على مكتب خشبى كبير، ووضع لفة متوسطة فتحها فأحضر الفراش كوب ماء ، أخرج علبة الدواء

وأخذ حبة واحدة بيضاء خمنت ربما (ديمكرون) وشرب نصف الكـــوب ، ثـــم انـــتظر قليلا وفتح اللفة فخرجت رائحة الفول والطعمـــية// الله يكرمك// وأكل وشرب باقى الكوب ونام على المكتب لحظات ثم وقف فرأيت عينيه ، غرقت فى حالة غريبة من الدهشة وأحسست أننى أُسحب منى ، كان هو قد نام يتلوى علـــى المكتب والتف حوله بعض الزملاء الذين حضروا على صوت ألمه المكتوم وانفتحت فى رأسه النائم شاشات العرض . يخرب بيت كده؟ ما هذا؟

جلســـت إلى نفسى لا أدرى من كان منا أمام الآخر ، دخلت إلى نفسى ، نزلت إلى نفسي، وتأملت حالى بعد رجوعى مـــنهكا مـــن هـــذا المشوار فى مركز البحث وما لاقيته به من أحـــداث كلها تتعلق بهذا الكائن ، فجأة قفز قط مرعب بالحقيقة وجلس فى حجري، هذه المرأة التى رأيتها فى هذا الكائن ليست عمته إنها عمتك أنت، لم يحدث أى شيء، فقط لم أستطع القيام مـــن مكانى بينما استمرت شاشات العرض التى ظهرت أمامى على الحائط، كأننى طفل مستسلم لقضائه هانئا بلبن أمه يمتص حليـــب ثديها ويتفرج على صدرها، بالضبط هذا ما كان أثناء مشاهدتى العرض الذى أثبت لى أن كل ما مر بهذا الكائن من عـــروض فى رأسه تخصنى وحدى ، لكن ما آلمنى أننى كنت أشـــتهى عمتى وأنها أتت إلىّ فى شقتى واختبرت رجولتى فلم تجدهـــا ، وبعدمـــا رحلت وجدت رجولتى كأننى قد خبأتها فى زلعة الدقيق خوفا عليها من فئران الشهوة.

ولكنـــنى لمست الكتاب فى جيب سترتى فأطمأنت نفسى، قمت فزعا وقلت ليس أمامى بعد كل هذه المكابرة إلا الذهاب إليه.

* * *

السـلم حـتى الدور الخامس مرهق تماما لكأنما سكن الـدور الخامس ولم يشجع صاحبة العمارة على تركيب مصعد ليقطع قلبنا وندرك مدى أهميته وعلو شأنه، وضعت يدى على الجرس خفيفا ففتح ضاحكا : أهلا .. تفضل .. إزيك.

ـــــــ يـا سلام مبسوط ، أنا تعبان يا عبد الله .... مبسوط؟

كان يضحك وتركنى ودخل إلى المطبخ

ـــــــ تعال يا أخى لاتتركنى

ـــــــ حاضر سأحضر لك القهوة

ـــــــ القهوة ...؟ أقول لك أنا تعبان ، تقول القهوة ، يـا دكـتور صاحبك أنا ، سأجن وسأرمى الناس بالطوب فى الشارع، لا ربما جننت فعلا

ـــــــ اشـرب القهوة ثم احك لى كل ماتريد أن تقول

ـــــــ لقـد اشـتهيت عمـتى ، وجاءت إلىّ لتختبر رجولتى ... يا أخى لا أستطيع أن أكمل وأنت تعرف ماذا يعنى هـذا فـى الشرع، وفى الأحلام عند ابن سيرين، وعند طابور

النفســانيين من أول عمك حفنى حتى، لا كان، وأدلر، مرورا بفــرويد ومعلمــه الأول الــذى سرق منه فرويد عمله المجيد وطوره،

كــل البشــر تدين هذا التصرف ، هل أقتل عمتى تلك المنحلة بنت الكلب أم أقتل نفسى ؟

ـــــ عمتك من ؟

ـــــ عمتى فتحية التى كانت تصعد السلم/ فى العمارة الكبــيرة الــتى أسكنها/ خلفى وكانت يتشح بها الأسود وتتسلح بمفاتنها، هذه المكتنزة يا أخي!

ـــــ ليست لك عمه بالمرة وهذه المرأة حكيت لى عنها أنها كانت تصعد خلفك السلم وكنت تتمناها ثم حدث باقى ما تعرف و...

ـــــــ هــل ستشــتغل علىّ دكتور؟ أنا مريض ولاداعى لقتلى الآن ، الله الرحيم لم يقتل البشر، ولكنهم يحلون مشاكلهم بالقتل، وهناك فرق بين القتل والإبادة

ـــــــ هذه المرأة عمة أحمد بركات صاحبك

ـــــــ أحمد بركات صاحبك ؟من؟

ـــــــ لا داعى للتسلح بذاكرة إنكارية تحتمى داخلها من داخلك الذى يواجهك، كن قويا وتسلح بالمواجهة فى سبيل الوصول إلى نوع من التصالح بين الخارج والداخل و...

ـــــــ متشكر السلام عليكم

ـــــــ اجلس يا أخى لم نكمل الكلام بعد

ـــــــــ أنا أحب أن أسير فى الشارع وحدى وأعمل مـــع نفسى جلسة صلح، لكن هل بالضرورة يا دكتور أن يكون كل من يشتكى من حالة مرضية أو عرضية أن يكون مريضا ؟ ألــيس هــناك افتراض ولو واحد فى المليون أن يكون كاذبا ؟ لماذا هذه الثقة التى تشبه ثقة الجراحين، أنه هنا بالضبط سأفتح بالمشرط فتحة صغيرة فتبرز الزائدة الدودية!!

أى ثقــة هذه التى لا تجعل ما هو متعارف عليه يغير أحوالــه / فكــيف تم اكتشاف حالات القلب الذى يغير موضعه وينام فى الجهة اليمنى ؟/

ـــــــــ إذا كان المريض كاذبا فعلى نفسه ويمكن تــدارك ذلــك بسهولة من مقارنة أقواله جلسة بعد أخرى ، أما موضـــوع الجـــراحات فهــذا ما استقر عليه الطب من آلاف الحالات، والحالات المخالفة تم رصدها ، فلماذا لا تكون هناك ثقة ؟ وهل سنجعل كل حالة حقلا تجريبيا ؟

ـــــــــ هل تفعلون غير هذا؟

ـــــــــ أنت تحتاج أن تشغل الآخرين معك

ـــــــــ ماذا لو قلت لك عما يحدث لى عندما أرى الأستاذ؟؟؟

لا أعرف اسمه أو ربما أعرفه، لست أدري

ـــــــــــــــ لــك أن تــنام الآن ، فأنت متعب ، مرهق قليلاً

ـــــــــ عندى اقتراح ماذا لو أنتحر؟

ـــــــــــــــــ تخاف من اشتهاء عمة لم توجد وتحل المشكلة بالانتحار، ثم أنت لن تنتحر

ـــــــــــــــــ يا سلام على الثقة

ـــــــــــــــــ الانتحار يحتاج شجاعة من نوع خاص وهذه ليست عندك هل تعرف لماذا ؟

ـــــــــــــــــ أكمل فتح الله عليك يا مولانا لماذا يا حبيبي

ـــــــــــــــــ لأنك تحب الحياة

لم أبك ولكنى نزفت حتى ضخت العروق هواء.

أفقت وجدتنى فى بيت الدكتور عبد الله نائما وهو غير موجـود ولكـن هناك صوت ما فى المطبخ قلت : ربما يجهز قهـوة أو مـا شابه ذلك ، وسمعت صوت زحف شبشب على الأرض وهـذه ليسـت طريقة عبد الله فى المشى قلت : ربما الشبشب مقطوع قال : صباح الخير

رفعت رأسي إليه فارتعبت وصرخت: يا نهار أسود؟

كـان الأسـتاذ يضحك ويحمل فنجان القهوة ، هو هو نفس المشهد ولكن القهوة بدلا من الوردة فأغمى عليّ.

صـحوت مـن نومى كان الهدوء يسود المكان، وإلى الباب، إلى الشارع ليتنفسنى الناس، لم أعد قادرا على رؤية هذا الشـخص كمـا لـم أعـد قـادرا على زيارة وحوار الدكتور عـبد الله / لمـاذا يريد أن يجعلنى مجنونا أو كاذبا على أحسن حال؟/ أما الآخر فلا أعرف ما يريده مني؟

قلـت إن العـالم قد نشر المصحات النفسية ، لماذا لا أذهب إلى هناك؟ ، لن يعرف أحد بالموضوع /

ــــــ وهل هناك أحد يهتم بك؟

ــــ من أنت ولماذا تقحم نفسك فى الموضوع ؟ ، ثم إن صوتك يندس كالفأر وأنا أحب الوضوح ،

أنـا مختل قليلا وأريد أن أتعالج/ كيف قليلا؟ من هذا الشـخص الـذى أراه ويقابلنـي، نعم هو لا يتكلم معى ولكنه حقيقة، هـل أكذب عيني؟

* * *

قالت لي: البيض والفول أهم من الناس

لـم أرد، ولكنـنى أدركـت أنـه لابد من الذهاب إلى المستشفي

كـان هـذا بعد أن ضغطَتْ جارتى على جرس الباب وكنـت أنظر من الشباك لأتفرج على حركة الناس فى الشارع فى الصباح وأسجل خواطرى ،

كلاب تسير متسكعة فى الشارع ، غشاشون يستفتحون باسـم الله العظيم ويسيرون فى عملهم المعتاد يملأون الشوارع ببصـاقهم ولهاثهم وكلماتهم نصف المبحوحة ، قطط تنام أمام القـط الأسـود الفحـل برأسه الكبير بينما ترقص الشهوة فى

المســـافة بينهن ، طوابير من العمال تصلح لكل شيء يتابعون النظر إليك وأنت فى الشباك سائلين عن إمكانية تقديم الخدمات إلـــيك ، وعندما انتبهت لصوت الجرس فتحت الباب فزعقت : ساعة والجرس يرن وأنت نائم

ـــــ أنا غير نائم ولما سمعت الجرس فتحت الباب

ـــــ كنت مشغول؟

ـــــ كنت أراقب الناس فى الشارع

أعطتـــنى الفـــول والبـــيض مع بعض الكلمات التى لم أفهمها ولكنها حددت قيمة الناس وأكدت أهمية الفول والبيض .

(٣)

دخلـــت المستشـــفي، ذلك المبنى الذى هو الهدوء بينما كـــان داخلى يغلى من معرفة قديمة لأساليب إخضاع المريض بالعـــنف لتلقى دفعات العلاج الكيماوى الذى يتركه عادة خرقة مبلولة، ومن المفترض أن يتلقى جلسات العيادة بينما التقابل مع المحلـــل/ لفظ غير محترم له رائحة الزنا والتآمر/ وجهاً لوجه الـــذى يتلقى إجابات من خلال أسئلة، بكل هذه الإجابات يكون هو القادر على الربط والتفسير والتعليل والتحليل حتى تتماسك هـــذه القطـــع فتفرش أمامه لوحة هذا العقل ونقاط الظلام التى تحتاج إلى إنارة ،

ــــــ أنا عبد العال يا كلاب

// صـــوت يأتى من عمق الأشياء ليقطع حبل لتصال التفكير ولكن يفجر مناطق كثيرة بالذاكرة//

ولكـــن ما سمعته لا يسعد أحداً، وأنا أمام القول الفصل فليس هنا مجال لمجتهد وليس من ذاق كمن سمع .

ــــــــ نعم

ــــــ مريض وأريد دخول المستشفي

ـــــ كارت أو تحويل

ـــــــ لا ، أنا مريض ، أين الدكتور؟

هــذا ما قلته وما قالته الموظفة التى بالاستقبال ، وبعد ذلك لم ترد علىّ ولكن تلفنت بصوت هادئ ، وضحكت ولعبت فى سلسلتها الذهبية ثم انتبهت لى قائلة: لا

تركتها وهممت خارجا ولكن اليد التى امتدت وشدتنى مــن ملابسى بالتأكيد لم تك يد شيطان، ولكنها يد آدمى أدمى أنــف الشيطان وكسر عظامه فى منازعاتهم / سحبنى من قفاى كلعــبة فى يده / فى الحجرة التى بالحديقة والتى بجوار السور أدخلــنى فأقفلوا الباب ثم أخرج من الدولاب استمارات دخول، وتقاريــر طبــية، ورأى الاستشارى وقراره ، وفترات صرف الدواء ، وتاريخ المرض.

ـــــــــ ما هى المشكلة التى هربت منها هنا ، ـــ وماذا تريد أن تعمل بالضبط؟

ـــــــــ أنا مريض فعلا

ـــــــ ليس معقولاً أن تشتغلوا جميعا بالقيادة

[رُوتصيم كُلاَّخِم لَعَسُقْ بِرَاشُوت]

انقضَّتْ علىّ جماعات نزعت ملابسى وألبستنى ملابس المستشــفي، وأخذوا مقاسات كل جسمي، وقدمى ، وسألوا عن أحــب الألوان، ولما قلت لهم البنفسجى أمال الدفتر إلى أقرب الواقفين بجواره لأنه كان قد سجلها قبل أن أنطق بها.

ـــــــــ أنـــا عبد العال يا كلاب، سأظهر لكم من كل مكان.

كان الصوت مستنجدا بأى أحد متعاليا كأنما يشمت فيهم لظهـــور صدق قوله، كان الصوت عندما ينطلق لا تعرف من أين يأتى ولكنه يمر من صدرك ، ينطلق فى أوقات غير محددة ولكن فى حينها ومناسبتها

* * *

كنت أراهم يخرجون من التوق إلى الشوق عبر السور الحديـــدي، ويمـــرون قبل الفجر من تحت الكوبرى وقد تبدَّلتْ هيئاتهم// وتبدَّلتْ هنا ليس من باب تغيَّرتْ ولكن من باب لبستْ البدلة //

صـــارت الوجـــوه لامعـــة مشدودة ، والشعر نصف مصـــبوغ ، ويندسون فى ألق الوجاهة وعتمة الضباب متخطين ذواتهم واهبين كل حياتهم للمؤسسة التى وضعت شعاراتها فوق الســـيارات الـــتى يندسون فيها ، وعلى مهل وبدون عجلة كل يركـــب بالســـيارة الـــتى تصادف وجودها لحظة خروجه من السور، كان ما يشغلنى إلى أين يذهبون ؟

ثـــم لماذا لم تبلغ عنهم إدارة المستشفى بالفرار ، ومن يتحمل مسئوليتهم إذا حدث لهم مكروه؟

ثم من أين يحصلون على هذه الملابس؟

أمـــا السؤال الأول فكان الامتناع التام عن الإجابة ليس لأنى لا أعرف فقط ولكن وأجهل أيضا.

أمـــا الســـؤال الثانى أن أهلهم يعتبرونهم مفقودين من لحظة دخولهم المستشفى وفى الحقيقة يكونون قد استراحوا منهم تماما، ثم أنهم يعودون بعد أداء مهامهم.

لهـــذا تأكد لدى أن الإدارة لا تتواطأ معهم لكنها تعرف أنهـــم يعودون فجرا ولذا تترك الباب الرئيسى لهم مفتوحا على مصـــراعيه. / إذا كـــان الباب ضلفة واحدة فمصراعيه تعنى الأعلـــى والأســـفل ، وإذا كان ضلفتين فتعنى مصراعا فى كل ضلفة/

أما السؤال الثالث فقد عثرت بالصدفة على مكان يكاد يكـــون من وضوحه أنه لا يرى ، وعليه حركة قليلة له باب له صـــفة بيوت العقلاء ، كان الباب صامتا جدا وعاقلا جدا ، تبدأ حركـــته قبل الفجر وتنتهى بعد ساعة من الفجر ويقوم بحركة إرسال الذاهبين إلى الهيئة.

إنـــه مخـــزن كبـــير جدا به ملابس عسكرية ومدنية ، وملابـــس نسائية ، وزى البوليس، وأزياء أخرى تذكرك بمدينة الســـينما فـــى هولـــيود، به أكثر من عشرات الأفراد بالضبط، يعملـــون ربمـــا كـــانوا من الصم والبكم فى دقة الانضباط ولا يدهشون، ويؤدون أعمالهم بمنتهى الدقة والأمانة والإخلاص ، فـــى رص وترتيب الملابس، واكتشفت أنهم هم الذين يحددون ألـــوان كل يوم ، فنلاحظ مثلا أن يوم السبت لبني، ويوم الأحد

بني، بينما يوم الاثنين أخضر ، طبعا عرفت هذا عندما دخلت عــندهم أكــثر من مرة وأنا فى طريقى إلى المؤسسة لابسا ما يخــتارونه لي، ولما كنت قادرا على حل السؤال الثانى والثالث فــإن الأول يتطلب لمعرفته فقط أن تدخل التجربة، لهذا قررت السهر حتى الصباح لأراقب هؤلاء الذين يتغيرون ويغادرون .

سهرت حتى الصباح، كل شيء هادئ وجميل، والقمر يبســم فــى علــيائه والسماء رائقة كعين الكتكوت ، ولا ظلال لمخلوق إلا الأشجار هى التى تتمتع بالمكان والسكون ،

شــبح يتوارى عن أعين مجهولة ترصده أشباح أخرى تــتلاقى ظلالهــا ولكن لا يكلمون بعضهم البعض ؟ هل لأنهم مجانين فعلا؟

قلت هذا وقتك ، واندسست وسط الأشباح التى صارت نــزلاء كنت أرى بعضهم ، لم يكلمنى أحد ولم أكلم أحدا منهم، كان الصف يتحرك كأنما نسير على الغمام ولم أكن خائفا وليس عندى ما أخاف عليه ،

وصلت إلى باب المخزن الكبير ، صالة كبيرة واسعة ، تتوه فى براح الصمت والأنوار الخافتة، وتتلقفك الأيدى المدربة الخبيرة فتجردك من ملابسك قبل أن تدرك ما يحدث تدفع إلى حمام، وتستحم كما لم تستحم فى حياتك وتدهن بعطر ، وعطر ستعرف مستقبلا أنه يحدد دورك الذى أرادوه لك بناء على هذا العطر، تلبس بأيديهم ملابس جديدة من هذا المخزن وتدس فى بدلــة كأنما أنت صاحبها، وهنا تكون أولى الحلقات قد تمت ،

والحق أقول ثانى حلقات الإعداد ولكن كتمت عنك الحقيقة التى تقـــع فى أول الأولى وآخرها، ولكن سأقول لك فأنت ستعرف لأنك ستمر بهذه التجربة ،

بعـــد خلع الملابس وقبل الاستحمام أدخل كل واحد منا فى حلقة وسط متحلقين لا وجه لهم لكن لهم أيدى بها كرابيج ، وبـــدأ الجلد ، ولا أى صوت لا منى ولا من غيرى حتى كفوا وحدهـــم حسب الأوامر التى تسيّر المكان ، وللمرة الثانية للحق أقـــول أنـــنى بعد نصف ساعة من الضرب ما كنت قادرا على الإحساس ولكن كنت أفكر فى الخطوة التالية التى لن أقول عنها شيئاً فأنت تعرف وكأنهم يطمئنون عليك من الداخل ولكن بشدة، خرجـــنا وسط الطابور الذى لم أعرف من يحركه إلى السور، ووقفنا أمام السلك، كان كل واحد يعتلى السور فى وقت معين ، ولا يتحرك الذى خلفه إلا إذا همس فى أذنه بالتحرك وكذلك أنا، صرت خارج السور، رأيت سيارة كبيرة بنية اللون وبدلتى بنية اللون فعرفت أن اليوم الأحد ، همس الصوت : اركب ، ركبت.

ـــــــــ أنـــا عـــبد العال يا كلاب ، كلما تعاملت مع الناس زاد احترامى لكلابي.

انطلـــق الصـــوت لســـت أدرى من أين ولكنه اقتلعنى بحكمته وصبره وإصراره الذى يختار الوقت المناسب، توقفت الحياة لحظات ثم صمت الصوت وبدأت تتحرك السيارة مغادرة المكـــان، الستائر تتيح لك أن ترى ولا يراك أحد ، الميدان خاوٍ تمامـــا وتباشير الفجر فى الطريق // سرت معها فى مثل هذا

الوقت فى شارع كورنيش النيل، وكانت تبكى وكنت أغنى لها // والــباعة الســريحة يقعــون فى شباك النوم فيمسكونهم من أنوفهــم بعناويــن الجرائد وأخبار الصباح ، فيغطسون فى قاع الشــبكة غارقيــن فــى النوم ويتمددون كيفما اتفق ، والبعض يحسون بألم فى أنوفهم فيفزعون ويهزون رءوسهم نافضين أو محاولين التخلص من اليد التى أمسكت بأنوفهم، ولكنهم يقعون فــى شــباك الــنوم العميقة، حتى ولو تحايلوا للصحو بتدخين سيجارة فقد يتركونها وينامون .

كــنا قــد وصــلنا ، ودخلــت يسبقنى دليلى إلى قاعة الاجــتماعات فاردا الأوراق ممسكا بالكرسى الخاص بى دافعا بالكرسى أسفل المقعدة تماماً / هم يعرفون مقاسات كل شيء / وعــندما رفعــت رأسى عرفت كل الوجوه زملائى بالمستشفى ولكــن الرئيس لم أكن أعرفه ، وكان الرئيس يتكلم وكنت أتابع بفهــم شديد ما كان يقول : (كلما ١٠٠% ارتفع معدلات الهواء فــى الســحب ولــم أكلمهــم تفضل يا أستاذ ، وأنهم فيما كان يــتحركون وســتدور المقررات كما قد نركب الهواء المتماسك وأنا لم اكن أريد وصباح سافرت من زمن اندحرت الجبال ٣٨ % من الخزان .. والاحتياطى والطوارئ وكما يرى الأصدقاء أرحــب، آخــر بلاد العالم حتى الذهاب أستطيع) انتهت كلمة الرئــيس وتكلم الذى يليه < مسا الذى يتجه بكل حسم نحو... التموين آه اليوم على ١٥% من ماء كثير ينزل من الأذن ولكن المســنيرات انتهت، إن ١٥% من كمية الجولات فوق الدخول

لإعطـــاء التركيب المثالى المتدنى تحت تراب مدهوس مدهش ... لبست ملابسها مع الهيبو انترستنج، والطائرات وتنزل حتى مستوى الرأس والرقص يدور حول قذائف العاصفة مجدولات لا تصرف الضرب المتكرر طيلة أدنى نيران من ولوج إلى أى أن، تمهيدا لاشتباك الشباك فى شبكات المشبك المشبوك بشبابيك المشـــربيات المبشـــنقة بالبشانق التى تدور منكشفة على محور الســـاقين خـــط مرج٣٨، ٩٧ مع خط أفق الإقليم السابع ١٢٣ سيجما لمدة نصف ساعة لأن من يملك .. كبير فليتصل... أما كـــلام البندقانى بوصلات المترو لدفع حركة الآن السلاملك... حاجـــز أســـود مخرم ودانتيل وصغير وغير مبطن وهو سيور طويلـــة ملفوفـــة تلف ثم ترمى أو يمسح به ، لزوجته الأجنبية تـــنظر مـــنه إلـــى التمثيل الشعبى لكائنات بدائية منقرضة فى قطـــارات أطفال منتصف الليل رشدى بينما الموازنة للأشكال الهندسية تتمحور بين لاهور والنقب الشمالى مرتكزة على لوس أنجلـــوس ، بيـــنما دانيال شتيورز وماكس فى جيكور من قبل العاصـــفة، ومن تتابعات نسغ الموجودات مع التكرار الهندسى الوراثـــى يـــبدو أن تيتو الذى شارك فى الحرب العالمية الثانية خرج من العالمية بإبهام مقطوع بينما كامل اليدين عند الموت ، إن مائـــة واثنتين هى متوسط عمره الذى شوهد فيه فمالنا من غســـيل دفقات الأموال والبشر لابد فى دمياط وأسوان والعاشر والسادس ورأس البر ورجل البر بينما الأبراج بالديمقراطية فى الإطـــار العـــام. صفقوا طويلا، لكننى على ما أذكر قد أخذت

قرارا بهدم الحى رقم ٢٧ كاملا، ثم حدث شيء صعب تذكره ، ربما تذكرتها ، وكنت سعيدا ، تذكرت للحظة أن فى هذا الحى مكــان أقــدام ســير محبوبتى مطبوعا تحت ثقل ردفيها على الســجادة بعــد خــروجها من الحمام من عشرات السنين ، لا أعــرف ما حدث فقد أفقت ، وجدتنى بالمستشفى كمريض كما قــال لــى الشــخص الــذى انحــنى علــىّ لحظـــة الإفاقة : أنــت مهم جدا وأنا كشفتك من مشيتك ولكن حتى ترى بنفسك، إذا احتجت أى شيء نادى على أى عيل باشا فهم فى خدمتكم أو بالجــرس يأتى لك راقصا/ ثم انحنى حتى كاد يلامس الأرض وأشار إلى جهاز التلفزيون الذى بدأ يعمل / أأمرنى يا سّلطة ، يا خديوى ، تأمرنى لأعيش خدام.. ثم قبّل الأرض وراح .

ـــــــــــ أنا عبد العال يا كلاب ، أمامكم ووراءكم ومن فوقكم ومن تحت أرجلكم يا بهائم.

رأيت جهاز تلفزيون فإذا أنا به أقول وأبتسم أتحاور ، لــم أندهش ورأيت حركة الهدم للحى رقم ٢٧ ، وقلت جميل ، ولكنى دهشت //هل يلومنى أحد على دهشتي؟// .

لما صرت كامل الإفاقة عدت، ولكن فى المرة الثانية لم أحــس بالضــرب بتاتا /هل قلت أن هناك جلدا؟ / ربما لأبين المعاناة ، أو لأننى حسبت التدليك ضربا ، ولكن ما بعد التدليك وهــو مــا لم أقله فلا يمكن للإنسان أن يخطئ فيه أو لا يعرفه ولكــنى لــن أقــول ، كذلك حدث كل شيء ولكن المتعة كانت شــديدة ، وكنــت مبتســما وأنا أركب السيارة، مستمتعا وأنا

بالمجلس أعطى الأوامر وأقرر القرارات ، شيء عادى لم يدر بخلدى أن ما سأقرره سينفذ،تكلموا وتكلمت وسجلت ، وتفقدت ، وافتقدت رؤية الشارع وأنا أسير فيه، / وتذكرت أننى أعيش فى الحى رقم ٢٧ المربع؟ نسيت / بمعنى مأسور بما أنا فيه ، أى واقـــع تحت أسره / وافتتحت، ووضعت حجر الأساس رغم أن اسمه سمل الأساس ، وعدت إلى مكتبى بالوزارة ثم إلى الجلسة المســـائية ، اتخذت القرارات وعند نهاية الجلسة أحسست بمن يدعك كوعى دعكا ، التفت إليه كان هو

ـــــــــ ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

ـــــــــ سيقابلك الليلة بالحديقة بعد النوم، لم أتوقع رؤيـــته أبـــدا ونسيته تماما ولم... إنه كان يتكلم ؟ كيف؟ وهو الباسم الصامت الذى لا يريم؟!

كنـــت أثـــناء العـــودة غارقا فيما حدث فأزاح السائق الستارة قليلا حتى يشاهد الناسُ الرعاعُ ، الكبار الذين يفكرون لهـــم صـــباحا ومساء ولا يجدون وقتا للراحة/ عرفت هذا من الســـائق بالتكرار/ كما أنه ليس سائقا ولكنه سائق بمعنى يدير الأمـــور ويتحكم فيها أى يسوقها، فالكل مساق (والتفت الساق بالســـاق إلى ربك يومئذن المساق) / كان لابد من الذهاب إلى المؤسســـة لاستكمال باقى القرارات ، جلست على المكتب أمام كمـــيات ضخمة من الأوراق، ولكن السائق بعدما بدل ملابسه أحضـــر السكرتير دليلى وقسموا الأوراق ملفات وأمسكوا بيدى اليسرى وخطوا ووقعوا/ هكذا لا يكون الخط خطى ولا توقيعى

أو توقـيعهم كمـا أنهم صادقون فى قسمهم إذا أقسموا أنهم لم يلمسـوا الأقلام نهائيا وأن القلم كان فى يدي، وسيكون قسمى صـادقا أنـنى لم أوقع على أى أوراق، سيأتى هذا مستقبلا فى الأيام القادمة لأنه عادة كل لاحق يبرز عيوب ويحاكم السابق/ وشـربت القهـوة الكثـيرة كما أمروني، ودخنت السيجار كما أمروني، ونمت فى الاجتماعات/مستقبلا ستعرف/ كما أمرونى حـتى يـرى الناس كم نحن مهمومون بمشاكلهم وأنه لا وقت للنوم لدينا.

ركبنا السيارة وعدنا ، كان الوقت ليلا، يسمع الليل فيه صوت استيقاظ الفجر وشربه الشاى حتى يستيقظ ليبدأ العمل،

دخلـنا مـن الباب الرئيسى الذى كان مفتوحا لنا على أصوات الكلاب الضالة والتكتم الحذر إلى الباب الآخر للمخزن، زعق الصوت من خلال الزجاج المشروخ الذى يهتز داخلنا

ـــــــ مرحبا بالكلاب ، أنا عبد العال يا وساخة ، عبد العال فى كل مكان، الحصار الحِصار يا شعب عبد العال.

وخرجت العربات ، سقطتُ مغشيا علىّ كانوا يتابعون شـريط التسجيل اليومى لكل منا على أجهزة العرض ، أ دار السـائق السـيارة ووضعونى بملابس المؤسسة فى المستشفى العـالمى ، وقـرروا إعدام طاقم الرئاسة والوزارة من أطقمى وعـدت بملابسـى الـتى دخلـت بها إلى المخزن من أربعة وعشرين ساعة، سحبت مع مخصوص إلى مكان الحقن فغافلته وعـدتِ بمزاجه إلى سريرى وأفرغ المحقنة أرضا قائلا : هم سيشكون ولكن سيتأكدون وستعدم .

(٤)
لقاء الحديقة (الحقيقة)

هل كنت مخلوقا سماويا لم يخلق كى يدوم طويلا على هذه الأرض؟

كـيف لـى أن أصـعد إلى السماء وليس لى جناحان اثـنان فكيف لى أن أطير؟ وإلى أين ؟

كيف لى أن أختفى عن أعين الناس ، وهل قدّر لى ألا أراهم مرة أخرى ؟ وكيف أعيش بدونهم/ مهما كانوا أندالا أو يحرصـون علـى مكاسـب صـغيرة تليق بمتسول ،أو أنهم مستعدون أن يقضوا بقية عمرهم ملتصقين بك من أجل سيجارة أو كوب شاى وهم ليسوا فقراء ولكن فقراء من الداخل ، داخلهم خرابات تبول فيها الفئران/.

انفصـلت عنهم بعد أن قابلنا الأستاذ عبد القادر الأسد وضـمنا إلى التنظيمات الطليعية غير أننى رُفِتُ فى أول جلسة عـندما ناقشنا عدم مشروعية إعطاء فرد الحَق فى الحكم على تجـربة شعب واتخاذ القرارات فيها ، فحتى لو كانت صحيحة فإنها غير حقيقية، لكن بعضهم استمر حتى صار هو التنظيم ،

وأصــبحوا غــير مــا باتوا، وبت أنا صديقا لعبد القادر الأسد صداقة سرية خوفا عليه لأنه كان محاضرا ومثقفا فى التنظيم، وخوفا على ما صرنا ننتمى إليه بعيدا عن عمله.

إذا كنــت فــى ذلك المأوى أستطيع أن أراهم وأراقبهم وأتحكم فى مصائرهم ومصائر أهلهم وغيرهم ، ماذا يمكن أن أفعل لهم لأسعدهم؟

هل هناك من سيسأل عن غيابى ، أو تهلكه وحشتى ؟

ـــــ لن ينفد أحد بجلده من تلك المبولة التى انهارت أرضيتها فانزلقنا فى خرائها.

أعرف أننى ما جئت هذا العالم كى أعبر فقط وأترك بصمتى وأتركهم ينسجون الحكايات حولي.

كنــت أرانــى وأنا أدخر المعجزات لأيام أخرى قادمة ،وليس ضنا بالمعجزات على الأيام ، فالمعجزات كثيرة ولكننا نــأمل فــى أن تكــون هــناك أيام أخرى قادمة؛ لتحدث فيها المعجزات.

وكــم مــرة ضــبطتنى وأنا أرتب الأفراح والقهقهات وأرصــها وأرتــبها وأكومهــا بجوار الحائط فى كومات حتى أخرجها متى احتجتها ، لأننى إذا وضعتها فى الدولاب قرضها الفــأر فلا تكتمل، وليس كل ما هو غير مكتمل جميل، فجمال الــنقص متوقف على عدم قدرة المتلقى على تلقى الحقيقة كاملة فهــو يمــدح النقص / أى يمدح ضعفه هو / وإذا وضعتها فى المكتــب فــإن اللصوص الصغار من ضيوفى قد يسرقونها أو

يبعثرونها من خلف ظهرى وهم يبحثون فى مكتبى عن شيء ما وأنا أعد لهم الشاى ، وقد تتفتت منهم فتتحول إلى كوابيس، فتخـيل مثلا هاهاها عندما تتفتت فتتحول إلى آه آه آه، فتصبح أنت عند التعرض لها مطاردا وغير سعيد،

فدائمـا عـندما أحب أن أخبئ شيئا أضعه فى أوضح مكان.

فكثيرا ما كنت أجلس فى الشرفة الدائرية الواسعة ذات الأعمـدة التى يعلوها التاج وتتصل مع بعضها بمقرنصات من عصر / ماذا سيفيدك من العصور، كلها مثل كلها/ وسأضع هذا العصر بجوار القهقهات للأيام القادمة حيث أجلس أدخن الشيشة وفـى كل مرة تتغير أشكال الشرفة والأعمدة والمقرنصات كما تتغير نغمة الساعة الدقاقة كل ساعة ، ربما فى أيام أخرى سأنام هادئ البال قرير العين ولن يؤرقنى شخير جيرانى فى الشارع الخلفـى أو فـى الشـوارع الأخرى ، ربما هذا الأرق بسبب موتها؟!

كنت أخبئ أحلامى حفراً على جدار الشرفة دائماً أتذكر كـم مـرة كـررتُ علـى مسامعك عند خروجنا بعد مشاهدة المسـرحية ما قاله البطل // إنِ اللعب مع السلطة جد خطير // ولكـنك كنـتِ تبكيـن، فغنيتُ لك نزفا من الروح يشهد علينا كورنيش النيل، وبائع الفول عمى عوض، وجامع صلاح الدين بالمنيل، وشارع القصر العينى، وقهوة عزت بالمنيرة ، وشاى الفجر بالنعناع ، وكلاب كثيرة كانت حولنا.

فعندما قالوا لى أنها ماتت كنت عائدا من جولتى الليلية وكانــت ترافقنى روحا طائرة ، دخلتُ إلى الحجرة كانت نائمة ربمـــا ابتَســمَتْ عند دخولى أو خَجِلَتْ ، قلّبتها ، خلعتُ عنها ملابسها بحثتُ حول العنق عن مكان أنياب الموت أو أظافره أو مخالبه أو سكينته أو آلته التى استعملها ربما هتكا أو قطعا، رفعــتُ الذراعين قليلا / ترهل الجسد الجميل كثيرا لكنها فاتنة مازالــت/ أدرتُ الجســد فى كل اتجاه فدار، الثديان متباعدان مكتـــنزان كمــثريًّا الشــكل صنعة باريها فمن يباريه إذا أغدق بالحســن ففاض؟ لم تكن للموت علامات، لكن رائحتها الحلوة الطائرة كانت تغمر المكان وتأخذ بتلابيب الروح ، لا خلل فى المفاصل ولا ثقوب بالجسد خال أسمر على الظهر أسفل العنق تحته خالان صغيران علامة بنية اللون فوق الكوع الأيسر

قالت لى: يومها كانت أمى تتوحم على كبدة صرختُ : يا رب من أين دخلها الموت أو خرجت منها الروح؟

لماذا ازدادت جمالا وصارت مكتملة فى الموت ؟ هل لأنهـــا ذاهـــبة إلى باريها ولا يقبل أن تمر من بوابته إلا قوافل الطيب المعتق بالجمال ؟ لك الأمر .

توجهــتُ إلـــى الله: أنت تعرف بلا شك من أين دخلها المـــوت أو حـــتى خرجت منها الروح ، وأعدك أننى لن أقاوم المـــوت عـــندما يجـــيء فى هذه المرة، ولكن دلنى فقط على المكان.

كنت أحس أنها ستنادى علىّ فيفلت منى القول – نعم

كثـــيرا بكيـــت وأنا أقلّب جسد المحبوب، كنت أبحث عن وجه المـــوت وأنتحب لماذا يا موت ؟ أنا أمامك فلماذا اخترتها إذن هـــل لأنهـــا الأجمل وأنت تكنز الجواهر ؟ أخذتها بين يدىّ فى حضنى ونمت بها باكيا، قلت فى نفسى عندما أقابل العلْم سأقول له يا علم لماذا لم تخترع مواد نعطيها لأحبائنا فتشف أجسادهم فنرى ما يؤلمهم فنمد أيدينا وننتزعه ونرميه فى الشارع ونقول له روح بعيد يا شر.

أنا يا ناس مسلوب الإرادة ومسلوب الموت مسلوب من كل شيء، كنت أعرف أنك ستخطفين منى وتموتين بعيداً عنى بـــأى طـــريقة، ولكـــن لدى القدرة لإحضارك بين يدىّ فالله لم يحرمنى نعمة الخيال.

ولكنـــنى كلما تفرست فى راحة اليد والأصابع مفرودة كطرق متشعبة تشممت كل الطرق ووضعت علامة على دربك حـــتى لا أتوه عنه، وحملت جثتها فى قلبى حتى لا يتبعنى أحد وأخـــذت قرارى بالرحيل فلم يعد عندى ما أخاف عليه ، ولكن ضاع الدرب منى لم أتعرف عليه. فدفنتها فى قلبى وسرت،

كلما اشتقت لها وخاتلنى ظلها أخرجتها اسما من القلب، وكومـــتها كومة جواهر فوق سريرى أو فى سريرتى فيضيء الليل والنهار وتنكسف الشمس وينخسف القمر ، فيجمع الشمس والقمر وتقوم قيامتها فتحتل الكون فأسبحٍ بُاسمها وأنادى (فذلكن الذى لمُتننى فيه)، ارحمنى منها ، فقط أريد أنام.

ربما سأنام وسأتابع النوم، لكنى أخاف من ذلك القط الذى يجرى فى قفزات سريعة مقوسا ظهره ألمحه يعدو بين الشوارع وكأنه أســد الوحشة، وشوق الحزين ، إلا أن بطنه الأبيض يمرض عينيك كالنور الذى شاغلك أثناء الاستيقاظ.

بتلك الأمنيات قلت سأعيش.

كنــت أسمع صوت البكاء المكتوم، وفى ثناياه همهمة فسرتها بعد جهد.

ــــــــــ يــا حبيبتى تعالى أنا عبد العال ، أنا لم أحن رأســى لأحد من يوم ولادتى حتى اليوم، حتى الحلاق لم أحلق رأسى عنده أبداً من عامى السابع حتى لا أضطر لأن أحنى رأسى لأحد ، كفى قلــت لــك تعالــي، آه أنا عبد العال يا بقر. يا أيها الناس علمنا منطق الحب، وأوتينا من كل وجد، ولنا قلب كبير، ماذا نفعل يا بقر؟.

وعرفــت أنها ليست الأمنيات لأننى عندما مددت يدى إلــى المســتقبل أفــتش فيه، مقلبا دفاتر الأيام ، أعدت ترتيبها مدخــرا قــبل نهايــتها وانهيارها كميات هائلة من الضحكات والقهقهــات والمعجــزات والصحة الجيدة والأصدقاء الطيبين، وكدست كل ذلك حتى ازدحمت به تلك السويعات الباقية، ولكن عــذرا فلــم تستطع كل المعجزات أن تعدنى بأن تمتد الأعمار قلــيلا ولا أن تــبعد عنى كل الطفيليين والمدعين وأولاد الكلب الذيــن لا أحــبهم، ولكنها أبقتهم لى بدلا من الأمراض والعلل، كــان لابــد لهذه السويعات القصيرة أن تتحول إلى أيام وأشهر

وســنوات حــتى تستوعب كل مدخراتى فلم يكن أمامها إلا أن تتمطى وتتمدد فيصير اليوم كألف سنة مما تعدون.

ربما ما يجعلنى سعيدا أننى أنتظر السعادة ، وأعتبر كل شــيء لانهائى فعندما أحب فالمحبوب هو الكون، وعندما أكره فلا أراه، وعندما أسافر مثلا إلى أى مكان أصرخ : الحمد لله يا رب أن عشت لليوم الذى رأيت فيه هذا المكان.

(مازلــت أنــتظر الــذى واعدنــى للقاء بالحديقة ولم يحضر.)

//اعتدلتُ ووضعتُ الساق التى أعلى اسفل والتى أسفل أعلى حتى يقوم العدل//.

* * *

مشاكســات الصــباح بيــنى وبين المحبوب هى عنب النهديــن وشــهد الــنور، ومشاكسات طائرة ، حمامات اللوعة والرغــبة المكبوتة تخرج مقطوعة الحروف غير مكتملة، فإذا بها عمياء لا ترى طريقها فتتوقف أمام فم صاحبها تسد الطريق أمام كلمات أخري، فيخرس صاحبها فتمتلئ المسافة بينك وبينه بزجاج مكسور، يدخلك ويهتز فى صدرك ويدميك ولا تستطيع طرده، وكلما تذكرته يهددك فتعرف أنه الخوف .

لذلك أحب أن أكون سعيدا ،

لمســـنى فانتبهت كان هو من رمى لى ميعاد الحديقة ، جلـــس صـــامتا ربمـــا لم يكن هو ؟ ولكنه هو ! ، لا يمكن أن أنخدع فيه قال : مساء الخير

ليس هو.. إنه يتكلم

ـــــــ أعرف أنك مشغول باكتشاف شيء ما، وكنت قـــبل ذلك مبهورا بإنجازات العلم حتى بات لك نسق خاص من التعامل، ثم أفلت العقل قليلا من تحت زمام العقال ، الحق أنك علـــوت وسافرت فاختلفت فصرت غيرهم ، فجئت هنا لتحمى نفســـك مـــن المجتمع ثم فوجئت أنت وحدك بما حدث معك ، وســـيحدث والمفروض ألا تفاجأ لأن هذه النتائج التى نعيشها لا يمكن أن تأتى إلا من هذه المقدمات التى عشتها وشاركت فيها ومازلت ستشارك ولكن فى أماكن أخري، فقد لوحظ أنك لحوح فى الأسئلة، وتفكر وترتب كلامك منطقيا فتحلل وتستنتج وهذا أس الـــبلاء لهـــذا تم إنزالكم عشر رتبات قوامية فصرت قائد جـــيوش البر الشرقى ولا يحتاج الأمر إلى كلام فنحن نحارب من أجل السلام ونسالم ونحن أقوى للحرب.

قلت : هذا شخص يعرف كل ما يفكر فيه الناس ، وما يترصـــدهم فى زمانهم المقبل ، وما سيفكرون فيه فلأحمِ رأسى منه وأوافقه.

ـــــــــــ ســـأتركك لمدة نصف ساعة لتتدبر أمرك وليس فى يدك إلا الموافقة ولكن تدبر أخطاءك.

تركني وانصرف وكانت الحديقة بيضاء بأشعة القمر لكأنها جوهر الحقيقة وكنت أفكر .

ـــــــــ ارحم نفسك يا وضيع وإلا لن يرحمك أحد، صحى البهائم يا عبد العال الفجر قرب.

في الليل المختلس روحك ، والمغتلس بشيء ما يسرق الروح ويشرق فيها غروبا ، تدق في صدرك خطوات العسس فتتوجس رعبا وتتذكر أرميدان والزنزانة رقم ١٧ والكلمة المحفورة في وسط غابات الكلمات //حبيبتي نسرين// وصورة ملائكية لبنت صغيرة ، لا داعي لفتح هذه الغرف الآن ، فعندما تهتز أضلعي كنت أثبت أضلعي بأوتاد من الصبر واللا مبالاة متوقعا أن تفتح كوة بالليل يدخل منها أولاد الكلب بعد منتصف آخر الليل وتقيد اليدين خلف الظهر، وعصابات على الأعين وجلدك على عروسة الاعتراف ، وأسواط انتزاع اعترافات كما يريدها هو، وحُمَّى الأسئلة لا تتوقف وقسوة التعذيب، والرحمة طبيعتهم، رغم أنه وقع أمامي في ورطة مرتين الأولى كنا في السجن ونعذب ووقعت اتفاقية سلاح مع أحد الأطراف فكان لابد من خروجنا من وسط أيدي هذا النظام الكلب فاضطر مع غيره أن يعتذر ولكن كانت ابتسامة السخرية من نصيبه وقلت له غدا ستحرسني وسأضاعف راتبك عندما أصل إلى الحكم ، والمرة الثانية عندما عرف أنني أعرف أن زوجته تعرف شخصا آخر وهو لا يستطيع منعها قلت له : هذه هي الحالة التي لا أستطيع فيها التدخل وأتمنى ألا أراك مرة أخري.

ولكن فى وسط هذا التذكر المرّ يدخل قلبك صوت صديقك الذى تركته منذ خمسة وعشرين عاما فى شوارع حلب تسمعه.

يا نسيم الصبح قـــولى للرشا
لم يزدنى الـــورد إلا عـــطشا
لى حبيب حبه وســـط الحشا
إن يشأ يمشى على خدى مشا
روحه روحى وروحى روحه
إن يشأ شئت وإن شئت يشا

تهـــل البشـــارة من جبال الطهارة مغتسلة فى ماء نهر الجـــوى ، فأرفع لواء القبائل المعترضة وأوحدها قبيلة واحدة، بيـــنما صوت الكمان يعلو بشجوه فوق كل الأشياء وتسقط فى غابات الشجن ، فعندما يسرى صوت الكمان فى العروق قطعا مدببة من الزجاج تحس بها وعندما تتوقف معترضة فى مسرى الدماء تمد يدك وتعدلها فى مسراها ليتدفق صوت الكمان عاليا، لأنك لا تتحمل سريان صوت الكمان الطفل الذى يحمل صوت الغريـــب والمجـــروح والمأنون ، رغم أن صوت الكمان يلون الجروح والدماء بلون البهجة الحزينة ولكنك لا تتحمل ليس عن ضـــعف ولكـــن عن قلة صبر، لأنك كلما شاكسك الموت كنت تفلت منه ، صحيح أن ضرباته قوية ولكن فى آخر تحرش بك ضربك كتفا قانونيا كاد أن يفقدك ذراعك ولكن لا بأس ، فلماذا تخاف أصلا؟

كـــان قـــد وصل ووقف أمامى بينما كنت أمد يدى فى جيبى وأمسك الكتاب

قال : بالليل لابد أن تمارس مهامك الجديدة ، المؤسسة بدونك لا تعمل ، لدينا آلاف غيرك فى كافة المجالات فقد ثبت بالتجربة أن أيًّا منكم يمكن له أن يعمل فى أى مكان، لكن أنت وصلت إلى وضع لا يتوفر فى كثيرين، فنحن نعرف انتماءاتك السياسية قبل ذلك ونعرف أبحاثك، كما نعرف قدرتك الفذة فى متابعة وانتظام العمل فى مراكز الأبحاث التى عملت بها.

قلت : من حقى أن أرفض/كان يدوى فى أذنى صوت عبد العال ، **أنا عبد العال يا كلاب.**/

قال : عندما تصير فى سلك المؤسسة العليا ، لا تصبح ملـــك نفســـك ولا تمتنع فلك دور محدد حتى موتك، وطبعا لن تحتاج أن تتخيل أنك فى حاجة إلى أى شيء.

كـــان صوت الكمان يعلو فى القلب ، والموت يضحك بعيدا فى آخر المشهد، بينما كان يقف أمام بوابة الجحيم ممسكا بوردته الحمراء.

*   *   *

(٥)

ـــ الرجل مات؟

ــــــ النبض لا يبين ، كلها كم ساعة ويرحل

ــــــ بلغ الإسعاف

ــــــــ أنا رأيى بلاش

كنـــت أبتسم وأنا نائم على الإسفلت بعد أن دخل علىّ المـــوت وكنـــت لا أعطية أى اهتمام وهو يلهو بنبلته متصيدا الـــناس فى الميدان، كنت أعرف أنه يشاكسنى ولكن لا أعرف لماذا كنت مطمئنا له ، وكانت كل التحرشات السابقة تنتهى بلى القـــدم ، الجرجرة على الإسفلت عند نزولك من الأتوبيس، أو على الزلط وأنت تقفز من القطار المسرع، ولكن عندما جاءنى الـــيوم من الخلف ضاربا كتفا قانونيا كاد يودى بحياتى ويفقدنى يـــدىّ عرفـــت أنه لم يكن يضحك فغضبت . وقررت ألا أكلمه لكنه كان غارقا فى الضحك وهو يجلس فوق إحدى العمارات، كنت أعرف أن خطابها لى بالاسم المستعار من بعيد فى طريقه إلىّ، فأجلت الموت قليلاً.

بكــت الســـماء علـــى غير عادتها فى فبراير يوم أن ضـــربنى المــوت كــتفا قانونيا راميا بى على الطريق تحت عجـــلات السيارة، ربما غسلت السماء ذنوب الأرض الكثيرة ، كذلـــك بكت الأرض ساعتها ، وكلما التقى ماءان فدائما توهب الحـــياة فاجتزت جسر الموت مرات كثيرة فى غرفة الجراحة، والطوارئ ، والإنعاش.

تحملت النوم تسعة وثمانين يوما متصلة على الظهر ، وثلاث عشرة ساعة بغرفة العمليات مرة واحدة ، وست ساعات فى عمليتين متتاليتين مرتين متتاليتين، خرجت من كل هذا كيس جلد به مجموعة عظام تم تصحيح وتدعيم معظمها؟ وكمية من الشـــرايين والأوردة والعضـــلات والأعصـــاب تـــم وصلها ، وخياطات كثيرة فى كل أنحاء الجسد لا أدرى ما كان تحتها، أو ســـببها ، لكـــن كان التقاء الماء بالماء وبكاء السماء والأرض فرحـــتى بالحـــياة الجديدة وانتظرت جولة أخرى مع الموت. وغير خائف إطلاقاً لأننى كنت دائماً أراها أمامى فى كل لحظة حتى عند اشتباك الجفون.

* * *

عـــندما رآنـــى أحمل ذراعى فى رقبتى وأسير به فى الشارع أخذ يطلق قهقهاته ويرش الباقى منها على الناس، كنت مهزوما ومقهورا فماذا أفعل؟ هل يمكن أن يكون ما أنا فيه حيلة أخرى من ترتيبه؟

بعـــد الشـــفاء ، قلت هو لم يطرحنى أرضا وهذه أول علامات السعادة ، ولكننى قابلت...... كان يقف أمامى بوردته الحمـــراء قمت جريا حتى لا يراه أحد من النزلاء ، كان يبتسم كعادته همست فى أذنه : ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

ســـار أمامى طويلا وجلس فى ركن من الحديقة ومال على فخذيه متكئاً إلى الأمام فرأيت مؤخرة رأسه تنفتح.

ـــــــ اذهب للراحة الآن... لديك عمل فى الوزارة مساء.

انفلـــت منى ذلك الذى خفض درجتى وصرت ضابطا كبيرا وآمرا حكيما ، الأسرار بين يدى تتدفق وتندلق.

وتخـــرج راقصـــة من قلب الباب محمولة على أيدى الأرمـــن، الممـــثلات أبـــناء علماء النبات - وأول من أرشف موسوعة النباتات والأشجار والشجيرات والأعشاب والحوليات ونـــباتات الصـــوب والظل والمجموعات الخاصة - والتمثيل والجاسوســـية، وخلـــع الأسرار من بدل اللواءات والأركانات والقيادات ويخرجن من المحكمة براءة بفتوى الأزهر الشريف، هـــؤلاء الذيـــن فى قشرتهم الخارجية مسلمين أو مسيحيين أو بوذييـــن أو من ملة بلاد تركب الأفيال وتسافر إلى واق الواق، ولكـــن عندما تشق عنهم قشرتهم الحديدية تجد أن لبهًم يهودى شديد التعصب والبرمجة.

انفلت منى ذلك الشخص كما غاب عنى الآخر بوردته الحمراء.

ســنين طويلة كنت أسير فى الشارع لا أحمل إلا فكرة واحدة تؤلمنى ، هل يفكر الناس مثل بعضهم البعض ، هل كل الفصاميون يفكرون بطريقة واحدة ، وهل يمكن أن تصير لهم لغة واحدة تؤرشفهم من خلال الفصام ؟

كنت مكتفيا بطهارتى لهذا لم أشك لحظة واحدة فى أن هناك شخصاً ما ممكن أن يكذب من أجل أى شيء فما بالك لو كان من أجل شيء تافه؟

كنـــت (ألتمس لأخيك سبعين عذرا) لكننى آليت على نفسى أن تكون خمسة وسبعين عذرا، الرجال لماذا يكذبون من أجـــل قروش قليلة أو مكاسب بسيطة تلك خيبتهم وهذا انتصار البخل، والبخيل ضنين بنفسه ومشاعره فهو لا يحبك ولكن يحب مـــا يأتى من مكاسب بسببك، وإذا كانت كل امرأة قد اختارت خـــرابة وحفـــرت فيها ودفنت الضمير ووضعت فوقه ملابسها الداخلية وردمت عليهم وأقامت فوق كل هذا ناطحة سحاب من الكلمات عن الشرف والأخلاق والضمير أيضا دون أن يهتز لها جفـــن قـــد تـــرتعد خشبة نقل الموتى من كل هذا لكن الرجال والنساء هؤلاء لا تهتز لهم شعرة واحدة !

فهـــؤلاء لا يـــنهارون ولا يحـــدث عندهم اكتئاب ولا يحضرون إلى هنا// أليسوا مجانين فعلا؟// لكل هذا قررت أن أصارحكم بما يحدث هنا وما حدث لى من بداية لقائى بالشخص الـــوردة، لكنى وجدت أن المسألة تحتاج أن نرجع قليلا من بعد البداية بحوالى ثلاثة أمتار إلا ربعا.

فأنـــا رجل بلا أسرار ، ليست لى أحلام كبيرة، أكبرها أن يمر اليوم على خير بلا جوع أو عرى أو مشكلات ، وليس مهمـــاً الغموس يوميا لكن لا نجوع ، وكان يقلقنى سؤال كونى مـــاذا يفعل أصحاب الألوفات بكل هذه النقود، وأين الوقت لعدّ هذه الفلوس، وكيف ينامون مرتاحى البال ؟ لهذا عندما قال لى صديقى أحمد بركات عن المرأة التى صعدت خلفه سلم العمارة قلت أنها عمتى فقد عشت هذا ولا أعرف فعلا هل هى عمتى أم عمـــة أحمـــد بـــركات ؟ ولكنى رميت الموضوع من الشباك واسترحت ، ولكن ظهر لى الرجل الوردة ولم يفعل معى عبد الله ، / د.عـــبد الله سيحول كلمة (تَفْعَلْ) إلى تحليل عن رغبتى فى التفسخ لكن سيترك حالتى / هل يمكن لأى عبد الله أن يكون مـــتآمرا مـــع ؟ مـــع من ؟ وأنا من هذا المن ؟ لكن هل هناك آخرون قادرون على السيطرة الكونية؟ أو التعامل بدون تصيد الأخطاء والإيمان الشديد بكل ما يقوله الخواجات؟

* * *

كنت أعشق تلك الأماكن الصغيرة / آثار أقدامها مبللة علـــى الســـجادة مطبوعة تحت ثقل جسدها/ وهى تتحرك كل صـــباح لتذكرنى بها ملفوفة فى بشكير كبير خارجة من الحمام تنقط ضوءا وندى وتنسكب نورا على عينىّ فأعشى فلا أميز إلا رائحـــتها وانفـــراط الجســـد خارجا من البشكير على السرير

بجواري، فأستعيد تجميعى لدبابيس شعرها من الحمام ووردات صغيرة هجرت ملابسها الداخلية من شدة الحرارة المنبعثة من جسدها، كذلك توكات شعرها عندما تصير حصانا فألم كل هذا فى كفىّ فينتقل القلب إلى كفىّ فأصرخ بكل حملى وجوارحى : عودي

كثـــيرا ما كنت أسمعها فأردُّ من فوق السرير : القهوة سادة والشاى ملعقة واحدة سكر.

فتصرخ : أحبك

كان ذلك بعد أن ماتت بعشرات السنين، وكنت فى أول الأمـــر أبكى لحظة اكتشاف الفقد وأرحل فى بحر دموعى إليها فتغضب منى وتضمنى طويلا بين هالات الضوء فأرضى .

ولكـــن فى يوم غير تلك الأيام ربما عموديا على أفقية الأيام لم أجد دموعا لحظة تذكرها فوقفت حائرا، أليست حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس مسئولة عن الفصول الأربعة فلماذا لا تأتى الدموع إذن ؟

نمت متلفعا بوشاح من الحزن وقلت غدا أراك يا بنت البهجة ونور الأشياء .

صـــحوت على لمس الحرير يعبث بشعر رأسى وشعر جســـمى يهـــتز له طربا، تغمرنى قبلاتها وأحسها تضغط علىّ وهى نازلة من السرير لبعض شأنها فأبسم دون أن أفتح عينىّ وآخذها فى حضنى وأقبلها وهى فوق الأغطية فأتنهد نارا وأفتح عـــيونى لأراهـــا فلا أبصر إلا وسائدى ، ولا أدرى لماذا كل وسائدى محترقة ؟

مــرات كثــيرة أكثر من عدد أصابع القدمين واليدين تســاءلتُ / هل أفتح شقتى فأجدها؟ لماذا لا أذهب إلى الأماكن الكثيرة التى كانت تحتفى بنا فالاحتمالات بوجودها كثيرة ، تلك آلامى وهذا ميعاد انتهاك الروح ،

ففــى هــذا الوقــت، فى الثلث الأخير من الليل تنتهك الــروح والكلمــات والمشــاعر وينتهك الجسد ساعات الغمر والفيض والتوحد والألم والإشراف على أعلى مرتفعات المتعة. ولما لم أجدنى هناك عدتُ أنام كما الأسماك بعيون مفتحة حتى أسقط فى لجة النوم ، لكن هل كثيرا أياما أعيش ؟؟

جــاءوا من خلف حائط آخر، بناية يتسللون كما القدر ويلــوذون بالحــائط واندفعــوا فــى اتجــاه المخزن // غرفة الملابس//.

قمت من فورى واتخذت موقعى ورششت الوهم حدائق من أفيون فوق أعصابى ودققت له فى هون الأيام عظام الخوف وربطــته بشــالات الكــتان والتيل // الموجودة فوق الخابور الخشبى وراء الباب// الأعصاب، فأصاب القلب البرد وصرت من السادة فى جودتها // اللامبالاة// فتهيأت أمام الخازن ملطا صرتُ فواتانى بالسوط وأعطانى بالبرح فلم أبرح من تحت يديه إلا منــتقما من كل البشر الفانين بلا أى ملامح أو ذنب، إلاّ ما صادفنى فى سيرى أو وقع ذبابة فى شركي، كائنا آخر صرت أنا ، فى السيارة وداخل الملابس الجديدة التى بالأوسمة انطلقت السيارة حتى باب العمل المؤسسى ، كنت أتأمل انعدام الحمد فى

البشر ، وكنت أعرف أن هذه آخر ليلة لي في هذا الموقع وغدا علـــى مؤسســـة الدفاع فقررت اتخاذ كثيرٍ من القرارات الهامة جـــدا، حتى يكون هناك وضوح ولا داعى لإخفاء الحقائق عن الشـــعب أولادى فيتم تهويل كل شيء ، فما إعدام بعض الناس إلا لصالح الأعم وهو فى العادة من باب تقليل العاطلين ومثيرى الشـــغب أو فى باب النظافة ، فنظافة المجتمعات أساس تقدمها، إلـــى أين ليس مهماً ، وما الجلد والكى والكرسى الكهربي/ إن كـــان يستخدم/ إلا من باب التدليك والتنشيط وجميعهم نشطاء، لـــيس جميلا أن ننسى تلك الجهود المضنية لتوفير الغذاء الذى فـــاض عن الحد حتى تجد المزابل فى كل الأحياء الراقية مليئة بالطعام ولا يمنع الفقراء من أخذه ، أليس هذا توفيرا وحدًا من استهلاك الأغنياء؟

ثـــم انظـــر هـــل ينـــتفع الأغنـــياء بمالهم ومصانعهم ومشروعاتهم؟ هى للفقراء يعملون فيها ويقبضون منها ويعيشون بلا مغامرات مع المستقبل أو خوف الإفلاس والمضاربات.

//**أنـــا عبد العال يا كلاب** (كان الصوت يرشح من داخلى تكاد كل الدنيا تسمعه)//

ثم إن الإدعاء بأن هناك خمسين ألف معتقل بلا قضايا يـــأكلهم الجنون والجرب والسل كلام لا أساس له من الصحة، ويقـــال فـــى كل المناسبات ، وفى كل الحكومات من باب أن يظهر القائل بأنه عليم ببواطن الأمور.

الواقع أن الناس لا تفهم معنى السهر على راحتهم وهم نـــيام وكل واحد لابد أن ينام تحت عينك مباشرة ، ثم إن كثرة الحـــريات الممـــنوحة جعلت الشبان والشابات يتمحورون حول ذواتهم ، أليست هى الأنا وهل هناك شيء أهم من الأنا؟

ـــ يا أولاد الكلاب يعنى يا أولاد الكلاب، كفاية كدب يـــا وســـاخة ، عـــندما أسمع سيرتكم وأرى أفعالكم أحن إلى كلابي، وهى ليست مثلكم ، هى كلاب عبد العال.

إن العـــالم أصـــبح قرية صغيرة لا مجال فيه للكلمات الضـــخمة الـــتى يطلقها المتخلفون عن انحراف المثقفين بفعل فـــاعل حتى تصبح الكتابة عن الذات بعيدا عن القضايا الكبرى ممـــا يفقدنـــا الهويـــة والقومية ، والنظام يريد للناس أن تعيش كخراف السيد المسيح ، كالأبقار الدنمركية ، حررناكم فاعتبروا أنكم أحرارا بجسدكم لن نضع فى القانون الفرنسى الذى يحكمنا بهذا الشأن أى تغيرات و لا نتدخل إلا فى حالات الاستغاثة، ولم تعد هناك قضايا كبرى فأنت مواطن وطنك العالم ويجب عدم الوقـــوف أمـــام الأفكـــار القديمة والضيقة ، لا تقل لى إن هذا انحـــراف بالقضايا عن جادة الطريق مما يكرس لقضايا فردية ويجعل التحرك على المستوى الفردى ، وليس هناك تكتلات من أجـــل القضايا الوطنية ، هذا هو التخلف بعينه ويكفى هذا دعنا نلحـــق بالعالم من حولنا/ لست أدرى هذا الصوت بقايا الضمير الـــذى دفنـــته بعيداً وتهت عن مكانه عامدا ، ولكنه مد جذوره بفضـــل بعـــض الدمـــوع الـــتى ذرفتها عليه ، لهذا تنبت هذه

المقــولات فى مواسم الشتاء مع المطر عندما يلفك هذا الحزن العميق ، أو أنه صوت إنسان ما لا أراه ؟

طــبعا فــإن قــبر أى شــخص من هذا النوع مليء بالشــياطين والأفكار القديمة وبذور أحلام عبيطة تتكلم بقاموس الأســلاف، ولا يــتوقف القبر عن التفكير والكلام فى ساعات كثيرة ، يتكلم كوجه يعود إليك يحمل ندوبه وبقاياه إثر إصابته بــالجذام الوطني، كل هذا لا يخيفنى ولن ....، نحن نصنع قدر هؤلاء البشر، وإننا لعلى موعد مع القدر.

ثم ما معنى إثارة عواطف الجماهير ؟

الجماهير كل مستقل بذاته وهى كلمة مطاطة فجماهير الكــرة غير جماهير الكلمات المتقاطعة ، غير جماهير الإثارة ومتابعة القضايا الجسدية وحرية إعلان الجسد ، ثم ما معنى أن أجد فى أرشيف الوزارة التى تم تغيرها إلى المصالحة والأخوة ملفات كاملة تتكلم عن الحدود كيف يمكن أن نتكلم عن الحدود ونطالب بالحرية؟

لمــاذا لا تســتطيع هــذه القلة استيعاب الزمن وحركة الوقــت ونحن كفيلون بطرح هذه الأفكار أرضا وتثبيت الجديد يومــيا إننا هنا من أجلهم ، نتخفى عنهم لنسهر على راحتهم ، إنهم أولادنا فماذا نفعل، لن نتخلى عن دورنا أبدا.

لمــاذا نتكلم عن المساجين؟ هؤلاء خارجون، وهم فى مكان أمين لنحميهم من المجتمع ، أنا لا أعرفهم ولكن هى أرقام تــزيد وتنقص وهذا موجود فى كل العالم . ما هذا الذى يحدث

لـــى ربما تعب فى الأعصاب من قلة النوم أو حالة إغماء ليس فى يدىّ وقت أضيعه لهذه الخرافات .. ولكن ما هذا..

دفقـــات مـــن دم أبـــيض بهالات النور تعلو الصحراء وتخرج فى شكل هالات كبيرة من الوجع مصحوبة بروح الأنين والتعذيب ، معطية الشمس استراحة من الإضاءة حتى تمرق فى سماء الله الواسعة فارشة سجادة البلاد تحت أقدامها رافعة أكف الـــرحمة والاســـتغاثة ملايين من تراتيل تطوح العشاق بكئوس مترعة بالحب ، داخلين فى صلاة الوجد ممسكين بتلابيب روح البلاد ماسحين عن رأسها أصابع الغدر والوحشة.

مالهم يمددون جسد البلاد على سجادة الوجد ويحسون رعشة الذبيح فى ارتعاشات الجسد ؟ مريضة هى ؟

أنـــا أعرف قديما أنها ذبيحة تقطعها أيدٍ غريبة لا تمل من التقطيع والذبيحة لا تمل من النمو والنبض، قلت من هذه ؟ ولماذا بلا أحد؟ قيل إنها أم خير أجناد الأرض .

صرخت : دافعوا عنها تعش و...

كم قطّعوا من أول الكون ويأتون ويرحلون وتبقى .

صـــرخ الصوت بكل بكاء العالم : **صدقتم أنكم كلاب ، وعرفتم أننى عبد العال يا كلاب؟**

* * *

أحـــس أن ملابسى ضاقت علىّ ونهر عرق يسبح على ظهرى خلعت سترتى وناولتها لمرافقى فنبهنى سكرتيرى قائدى أن ما فعلته خطأ لا يغتفر فقد صور وسجل وشوهد.

كان بطنى يزداد كأنما بطن خنزيرة به عشر توائم.

مسحت عرقى بمناديلى الورقية فكان دما وزيت تحلل عظـــام الموتى التى تسيل من أجسادهم ، كنت أراه عندما كنا نخـــرجهم لنـــنفذ فـــيهم حكما بالإعدام بعد محاكمة كل العهود البائدة.

كانت تنبت من أطراف أصابعى تبرعمات مثل الخميرة فـــى شـــكلها البسيط للانقسام الميتوزى البسيط مكونة حوريات ينفصـــلن عـــن أصـــابعى ويتلفعن بشيلان بيضاء ويستدرون فيتحولون إلى رجال فرسان من عهود مضت شاهرى السيوف مترعيـــن بـــالورع داخلين إلىّ متحلقين حولى بينما تنبت من ظهرى خلايا جزعية ذاكرتها فى d /n/ a صفر ، تتحول تكتلاتها إلـــى نســـاء يلطمـــن الخدود بلباسهن القديم من أيام كربلاء ، وأخريات حاسرات يسرن كالسبايا عيونهن مناجل حقودة قاصدة رقبتى ، يتقدمن تحت سنابك الخيل المغيرة فى حمىَ فرسانها ، وأخريات تحت بطون الجياد بينما الأرض بركان دم متخثر.

تقدمـــوا تقدمـــوا راوغـــتهم وهربت منهم جاريا بكل عمري،

وجدتـــنى فـــى صـــحراء هائلة عليها ركامات بيوت وأنقـــاض، آدمـــيون، وكنـــت كلما تقدمت ينبت الدم من تحت

أقدامـــي، تعثرت إبهامى فى عين جمجمة فصرختْ : لا أدعو عليك بالعماء فأنت هو.

كانــت الصـــحراء تنبـــتُ من حولى بملايين الهياكل العظمية التى دفنتْ فيها من زمن ، وتخرج من باطنها مخلفات النفايات الذرية من تربة راشحة بالدم وكل شيء يتشح بالأسود من أول الرعب حتى الموت مرورا بالخوف، وكان نهر طويل يقــف باكيا عموديا على الصحراء، يتأرجح متراوحا كالسيف الراقص نحو عنقى وينطرح كل مرة بجواري، صرخت : ياه،

أمسكنى سكرتيرى ومساعدى وكنت عاريا ، وضعونى فى تابوت سداسى وأعادونى إلى المستشفي.

*   *   *

كـــان جســـد الهواء ممددا ، وكنت لا أشكو ولا أهمس ولكـــن كنـــت أتذكـــر ماضـــيا من الوهم الجميل يحيط بسرير مرضي، لكأنما كنت استدعيه فيهاجمنى فتهب من خلاله البلاد خالصـــة لك ، أما الآن فترى ما هو مسكوت عنه الآن ، وفى ماض جميل ، أو ربما رؤية من نساء لوحات فنانى الإسكندرية الأخوان وانلى ، بين الأوبرا براقصاتها والسيرك بلاعبيه

ـــــــــ لا مكان لك ، مازالت ذاكرتك تعمل ، نحن لا نحب ذلك.

كان يربت على كتفي

ـــــــــــــ ارحل

ـــــــــــــ .....

ـــــــــــــ أشباحنا لا تشبه أشباحكم ولا تظهر دون إذن ولا تلبس الشيلان البيضاء ولا تأتى تحت بطون الخيل بجوارهن الفرسان، الأجيال الموجودة تم برمجتها فى أرحام أمهاتهم ووضع شريحة بها موصلات وأشباه الموصلات فائقة الجودة، بها كل ما يراد فى فترة زمنية محددة لها جلود سميكة، عميان القلب، من اختير للمهام الخاصة ينامون فى خيمة الأوكسجين وينقل إليهم شهريا أربعة لترات من دم بنات عذارى يبلغون من العمر سبعة عشر عاما به أكبر كمية من الإستروجين، فيعُودُون فتيان بلا ذاكرة من جنس واحد متحد، لهم كمالهم الذاتي، وأقوياء، وعندما يمرون فى منطقة ويعيدون المرور بها مرة أخرى يستعجبون من هذه القدرة التدميرية التى لحقت بالمنطقة، ربما مرَّ بذاكرتك أفرادٌ من زمن قديم كانوا يقومون بمثل هذه المهمات ، لكن هؤلاء يوضعون اليوم فى المتاحف أو يلهو بهم الأطفال لإمكانياتهم المتواضعة ومقولاتهم التى خدعت الناس لزمن طويل وصارت عارا لهم الآن ، وفى الأغلب كان توجههم لقيام ما نحن فيه اليوم ـــ لذا فإنك من زمن قديم لم تتخلص بعد من ذاكرتك، ستعامل بقانون الإخلاء.

ـــ طبعا أنتم كلاب وأنا عبد العال يا كلاب

كأنما فتحت علىّ طاقات من الضياء أو سرب بنات حملننى منطرحا على صدورهن متلمسا نعومة أجساد جَرَّحَهَا

لمس الحرير وأدمتها أصابعى ، ربما أنأت حيوانات تحولت إلى إنـــاث ولكـــن لست أدرى شيئا، صاروا حور عين ، كاعبات، ثيـــبات، وأبكارا ، متدفقا من بين أصابعهن ماء الحياة، أكفهن الرحيمة روح تتراءى لأعمى فتبرؤه فيري، وهن يرفعن أكفهن البيضـــاء ليرفعـــن خصلات ذهبية من فوق جباههن فيذبن فى الضياء .

كنـــت ســـعيدا إذ حملننى وعدن بى إلى القرية ،أرانى مضروبا بحمى شمس شديدة القسوة تتركنى أهلوس فأجدنى فى صـــحراء كالـــتى زرعت هياكل عظمية وبقايا ذرية نمتْ فى مكانـــي، ويزعم الزاعمون أننى لامست شفة شقراء لم تستطع قـــوة العجائز ولا بخورهن ولا نمنمات وصلصلات الأجراس ومجـــربات [أعْيَاشْ] أن تدمر طريقها أو تطردها من بين يدىّ، لهذا سرت فى طريقى مبتهجا لكأنما عدت إلى حبيبة بعد طول هجر .

لم يكن أمامى إلا الهرب فهل أستطيع ؟

كانت الصحراء بلا هياكل عظمية ، قلت فى نفسى أو جهرا من سيسمعنى أعود إلى شقتى بالمدينة .

لم يكن فى الأفق غير الصحراء والرمال وعلى مسافة بعـــيدة عدة أشجار واصلت السير محاولا فى نفسى رسم خطة بعـــيدة المـــدى عن ما الذى يمكن أن أفسر به اختفائي؟، أو ما الـــذى أفعلـــه عندما أعود إلى شقتي؟، هل آخذ حماما ثم آكل

وأنام؟ ولكن ماذا أفعل لو وجدت دبابيس شعرها فى الحمام ، أو نـــادت علـــىّ من حجرة النوم فوجدتها جالسة على السرير فى قميصـــها الخفـــيف الأصـــفر الباهت بلون عصير العنب وقد هجـــرتها ملابسها شاخصة بعينيها إلى صورتى الضاحكة فى الإطار هل أقول لها صباح الخير؟ .

ماذا لو أخذت يدها بين يدىّ فأحسست دفئهما ثم تذكرت بداية الأخيلة ، ضربة مفاجئة على اليافوخ (إنها ماتت) .

كنت قد وصلت منهكا غارقا فى عرقى وأفكارى حتى أشجار كثيرة متكسرة كسيرة رغم أنها أشجار إلا أنك تحس أنها وحـــيدة نجت كل واحدة بنفسها من وهج القنابل الذرية فوقفت فـــاقدة الذاكـــرة لا ترى ما حولها محاولة أن تمنع التشوه عن أجيالها القادمة منكفئة على نفسها تعيش فى العزلة والوحدة .

أســـفل هذه الأشجار ناس مهلهلون ربما بدو رحل لكن ليســـت الملابس كذلك والملامح لشعب خليط ضاعت ملامحه وتباينت طباعه كل فرد جزيرة منعزلة لم يجمعهم إلا ما هم فيه قلت : الطريق إلى المدينة ؟

قال أحدهم : أنت فى المدينة هذا هو الحى ٢٧

- ما الذى حدث له ؟

- أمر المختص فى المؤسسة قبل أشهر بهدمه

- حتى المربع ٦١؟

- نعم

لـــم يكن إحساسا بالفقد لأننى أقطن هذا المربع فى ذلك الحـــى ولم أكن أنا الذى فعلتها ، أو ربما أنا، ولم يكن شيئا له علاقة بالجنون ، لكن فقط لأننى لن أرى أثار أقدامها تحت ثقل ردفـــيها على السجادة مبلولة ، أو دبابيس شعرها فى الحمام أو مسح أصابعها على السخان من أثر السناج ، أو بقايا شعرها فى المشـــط، وكنـــت قد أخذته وحشوت به شقوق الذاكرة حتى لا يضيع أو يلامس الأرض.

فقط فقدت منطقة تقبيل وحشتها وانبعاثها ضياءً .

ما قيمة هذا القلب إن كان لا يسعك .

عندما تكف كل أعضائى عن العمل فأبقى كومة عظام وجلـــد فيشفق الناس عليّ، فلا أحس إلا بنبض القلب فأقول أنه يـــتمدد فـــى قلبي، فأحسك، وتأكلنى نار مقدسة، يرتفع الحريق فأخر ساجدا على سجادة قدميك تلفحنى النار المقدسة فأصرخ :

إن بورك من فى النار ومن حولها.

فأسمعك : يا نار كونى بردا وسلاما

فيصرخ كيانى : فذلكن الذى لمتننى فيه.

لـــم أحـــزن عندما أخذتها منى ، فأنا أراك فى النقمة ، فالـــنار جسر إلى الفردوس ، تزيل خبث الجسد بالنار فتصبح أنقـــى ، أخـــاف من النعمة حتى لا يركبنى الغرور ، سعيد أنا بأمراضــــى وأوجـــاعى سعيد ، وسعيد أيضا وأنت تسحقنى فى الحادثـــات فأخـــرج منها كومة عظام وجلد ، كنت قد شكرتك كثـــيرا لأنـــك كنـــت قد تركت آثار مسح يديك على فتنة أثناء الخلـــق، لم يعد هناك جمال ليفتن، والشعر شاب وقل ، العروق

تنـــبض فأصـــرخ هكذا أتجرد حتى آتيك عارياً إلا من ذنوبي فتحرقني بالنار المقدسة ، وتتجلى عليَّ يا كلي القدرة فأصرخ : أن بورك من في النار ومن حولها .

كنت سعيدا أراك وأنت تبتسم وأنا أمسّد شعرها وأقبّلها فــلا أجرؤ على رفع رأسي للنظر إليك؛ لكنني كنت أحس بك تحتل قلبي / بيتك / ، وأفرح كثيرا وأنا أرى جمال صنعتك في مفاتنها وآثار بصمات أصابعك غمازات الحسن ، يندلع الحريق من الخفين ويخرج برج نار من رأسي ، لا وقت للنوم ، الصيام عــن كل ما عداك الطريق ، لا أدري أي قيمة لأي شيء إن لم يكن لك ، أخرج مرصعا بالتوبة والذنوب مرتفعا على قمة جبل الخطيئة غارقا في دموع الندم فأسمع النداء أخلع نعليك .. فأنا اخترتك.

فأصرخ: للبلاء للسحق للأمراض والعاهات أنا راض بكل هذا فهل أنت راض ؟ .

وأنـــا في سحق المرض وقد غادرتني العافية قالوا لي اصبر .

قلــت لهم : لا ، أنا في عجلة من أمري ، كيف أصبر وأنـــا أتقلّب لحظيا تحت عينيك على نار الوجد، من مثلي الآن جســدي فـــي تـــابوت المرض وقلبي في عليين ، أنا على قمة جدول الأعمال .

مـــتى آتيك أطرق الباب فأسمع النداء : من أنت فأقول أنت، فنتحد

كنت كلما هممت بالغناء لها توجهت إليك
فارحم القلب الذى يصبو إليك
فغدا تملكه بين يديك

اليوم كألف عام أحتفل بالاحتراق، وفى كل حب أراك وفى النقمة أراك حتى لم يبق إلا قلبى / بيتك / فهل أنا أسرف فـــى الأمنية ؟. للأسماء مدلولات ولكن لماذا تصبح المدلولات واحداً هو أنت؟

تـــندلع الحرائق من براعم الورد وأزهار اللوز وفاكهة التين وأبصرك هنالك تتجلى ضحكة طفل ، أريج زهور العشق وأرى أطفـــال الـــرحمة وملائكة المغفرة تهدهد رأس العالم ، أبصـــرك ، أحيط بك دلالة كبرى حيث كنت أبصرك دائما فى عيونها فأخجل أن أنظر إليك وأمتنع عن تقبيلها.

علمـــتها أن أقـــبلها مغمضـــة العينين حتى أستطيع أن أتنفسها فأنت تجلس فى عيونها ، من علّمها أن تخرج كل لهيبٍ العـــالم تحـــت يدىّ فتتدفع النار من جسدها إلى أصابعى وتلف جســـدينا فتشـــتعل الحرائق فينا، وتفتح عيونها، وأراك ونحن نحـــترق فنسجد على سجادة قدميك صارخين أن بورك من فى النار ومن حولها ،

ـــــ وأنا اخترتك
فأهتف ثالثة ورابعة وألف .

كنت القبل قد صنعتها من هواى ، على بعد الوحشة من ميلادى صرت شغوفا بالنساء ، أتلصص عليهن من فوق أسطح

الــدور وأدور وراءهــن من موقع هوى إلى آخر ، أهتز من الوجد وأترجرج بترجرج الجسد وحمى العيون المريضة، أذوب مع اهتزاز الصدور فتصدر عنى الآهات صارخا من وقدة عود الآراك وروائح حصى البان ، لكن كانت حبيبتى أجزاء موزعة فى كثير من النساء فى مخلوقات كثيرة .

تعــوى الــرعود مقهقهة فأعرف أن صرخاتى تقع فى الوحــل، كان يقول لي: احذر هواك فالماء نقى والتراب طاهر لكن لو اجتمعا صارا طينا.

قلت له: من الطين خلقنا وبالحب وجدنا فهل نكون حبا مــن عجينة كره ، هل يمد الكلى القدرة يده ليصنع محبيه من عجينة دَنِسَة /حاشا وكلا /

قَالَ : أنت مغوٍ فاحذر ألاعيب الكلام

تردد صوتها داخلي : متى أكون؟

على مهل كانت *بعد رحلة شاقة اتحدَتْ بقلبى ، كانت الــنار قد أحرقت ثوبى ، وهى تشب فىَّ مندلعة من خفيها وأن أتلفع بها وأصرخ: أن بورك من فى النار ومن حولها.

ذهبــت إلـــى بيتى وأخرجتها وسكنا وكنا ، كنت أراك تــرعانا وكانـــت النعيم المقيم فخفتُ ، وادخرتها ليوم معلوم، أخذتهـــا عندك، لم أغضب وكان بودى أن أنجح فى الامتحان، كثــيرا ما كانت عظامى تؤلمنى وأكاد أطير بجناحين كبيرين،

* راجع رواية أوجاع الطين .

ولم أشكُ أو أطلب الرحمة وكنت دائما أصرخ : زد فى السحق حتى أكون ، زد فى ابتلائك وبلاياك ولا تسمعنى دمى المنثال علـــى الطـــرقات حـــوادث، وتســـألنى كـــيف الحال ، ولكن أحرقـــنى لـــتطهرنى حتى لا يكون أمامى إلا الفردوس الأعلى فأراها.

لـــم تختلط الرؤيا علىّ ولم يعترك الشك بصدرى لأنك أنت هناك، كذلك لم أكن مجنونا كما يقولون ، ولكن بطيئا واثقا عـــدلا تجـــيء لي، مالئاً كل الوجود تأخذنى على جواد الخيال مترف النعيم بثوب من البلايا ، فأتدفق على الدنيا نورا ونوارا وأريجـــا ســـائلا ويبقى منى بعد المغادرة كومة عظم مسحوقة ولساناً لا هجا باسمك.

هـــذه قبضة التراب تعود إلى الأرض، والباقى لك فما شأنى بالآخرين؟

صـــاروا حولى غريبى الأطوار ، قالوا هجرت عملك ونسكتَ فى كتبك وجننت ، وكنت أكتب الكتاب بأن أضعه فى درج المكتـــب وأحتضن المكتب فأرى ما يكون وتسجل كل ما فـــى ذاكرتى وما سيأتى ولم أقرأه فى يوم من الأيام ، وجمعت الأوراق فـــى وقـــت ما ووضعتها بالدرج فنمت فقمت وجدته مجلـــدا ، فلبســـت بدلتى البنية ووضعت الكتاب فى جيبى آخذاً روح حبيبتى وردتى الحمراء وسرت.

حاولت التفاهم معهم ولكن كيف ؟

فالقلب مشغول بغير .

القلب منتهك بغير.

هجـرنى الـناس فتزملت بنفسى وتدثرت بك وأسقط روحى نواراً على الطرقات زهراً ،

قلت : من يلمُّ زهر روحى ؟

لم يكترث أحد.

كانـت نوارات روحى تتساقط زهرا مفروطا فى وحل الأيام، ما صادفتْ دمعة عين ولا آهة قلب.

زمـان حينما مرت على خطواتى النابضة / روحي/ علـى إسـفلت الشارع لمّت زهر روحى وأدفأتها فى صدرها فأفرختنى فقالت: هو أنت .

قلت : نعم هو أنت

فامتزجـنا دما واحدا وتوازت أسنتنا تحت وجه السماء فأخذتها مني، شكرا لك.

اعتزلنى الناس فلم أجد الآخر ، وكنت أعرف أنه ليس جحيما ، ولكن صار .

صـارت الكـتابة بعد التفكير فيه حياتى ، نزف دمي، وبـراح هـو الجنون الذى أكابد حتى ألامس حدوده ، أجنحة الخـيال بعدى بكثير، كنت مشفقا عليها لأنها تبتعد كثيرا بائسة فقيرة، فى هذه الحالة بالضبط يلتهمنى الحريق ويذيب عظامى وتلك منطقة جديدة فأعرف أننى نجحت فى الاختبار فأصرخ : أنا الغريق اتركونى فتتحول النار بردا وسلاما.

أشـــواقى للإنسان الذى أوحشنى طاغية وغير محدودة بحـــدود، أقطـــع من عزلتى وأمد جسرا من التواصل ولكن لا جدوى فلغاتنا مختلفة تماما كأنما هبطت من مكان آخر ، رغم امـــتداد جسور تواصلى مع الحيوان والنبات والجماد، الكل فى وحدة واحدة ، لم تبق لى إلا الكتابة ، تحت سبى القراءات اقرأ، كـــل مـــا قرأت تحول إلى صمغ الراتنج من الموصلات وشبه الموصـــلات فائقـــة الجـــودة بنقاط الحديد الأخضر والأصفر مصـــنوعة بعـــيدا عـــن الجاذبية الأرضية فى محطات [ميرا] تؤرشف كل الثقافات والتجارب فى الذاكرة .

ـــــ ما عليك إلا أن تضع الأوراق بالدرج .....

كنـــت قـــد فعلت وأنهيت أحلامى ومستقبلى وهواياتى وكتاباتي.

قالوا: سندهن كلماتك فى الهواء أو على الورق براتنج الطيـــب اللاصق فلا تغادر سامعها أو قارئها وتسرى فى الدم مواكب لا ينقصك إلا اتخاذ القرار، كثيرا ما نحاول مساعدتكم ولكن طرقكم فى التواصل لا تصدر عن القلب.

كنـــت أود أن أدون سفرى أنا بنار مقدسة شاويا آثامى مبقيا كومة عظامى ودمامتى حتى أصبح عبرة للناس ،

ولكن كيف أعود لأندمج بمطلق الجمال ؟

هل تقبل بوابة الغيب ما يشبه العيب؟

لماذا فى غمرات الجمال أجدنى مقتحما أسوار الجلال كاســـرا ســـدا من العزلة مخرجا القلب من قفص الروح داخلا

ملكوتك فى عمائى الأزلى سابحا فى بحرك سابرا غورا بعيدا ، أكـــاد أغـــرق من عمق لجتك الأولى فتحاصرنى نار الكينونة فأشتعل برقا ، نيزكا ، نجما ، بركانا من صدع يخرج من تحت المـــاء زفرة مكبوت فتشعل النار فى الماء وأشتعل وأشم رائحة احتراقى فأصرخ : زد مواجعى حتى أري.

ناولنى كتابى بعد تجليده قائلا كل ما فيه قد تحقق وما لم تقرأ هو ما سيتحقق لحظة قراءته فاعلم واصدح بحلمك.

* * *

عـــندما كنت أرى الضوء الباهر منعكسا فى السماوات العلـــى ، وعلى الجانب الآخر من النهر ، ضوء يمكن تمييزه وســـط أضـــواء باهـــرة كثيرة كنت أعرف وأتمتم /هذا موعد مرورها اليومي./

وعندما أتذكرها أصير أعمى يزحف على يديه وركبتيه متتـــبعا عبـــيرها باحـــثا عنها وعندما لم أجدها كنت أتمنى أن تعتصم عيونى بالصمت .

مـــاذا لو أعود فأجدها فى الشقة / لا تقل لى أنها ماتت أنـــا أعرف يا أخى ولكن/ تأتى فى زيارة خاطفة وأجلسها على الســـرير آخذهـــا فى حضنى / لا تقل لى لماذا ترتعش ، أنا لا أرتعـــش ولا أبكـــى فقـــط أتذكر/ آخذها فى حضنى ونتعانق ونتقلَّـــبُ فوق الفراش فأُقلِبها إلى الجهة الأخرى فتتبدل أماكننا،

فأغافلهـــا وأرتـــدى رداء الموت وأعود معه بعد انتهاء الزيارة القصـــيرة ، وتظل هى فى الحياة ، فهى لن تتذكرنى كثيرا، لن أمـــلأ علـــيها الوجـــود فأصير الوجود ذاته، بعدى لن تستغنى بذكـــراى عـــن العـــالم، مثلما فعلتُ ، ولن تكوِّم اسمى أحجارا كـــريمة تضـــيء ليل وحشتها، وإذا مرَّرتْ يدها عليها يضيء الكون ، ولا هى ستبكى ، وإن بكت فهى فى عينيها دموع، أما أنـــا فدموعى جفت،/ أنا لا أرتعش ولا أتلاشى ولا عيونى تكاد تصـــبح كلـــيلة فلا أرى ، أنا بخير لأنها تتراءى أمامي./ فقط اتـــركونى سائرا فى دغل أحزانى ومفتتحا أمام الوجد بابا بعد باب.

(٦)

لمـــا أخذتنا السيارة بعيدا إلى مؤسستى العسكرية القسم الشرقى ، لم يكن لغزا ما أراه أمامى على خرائط المعركة ، لم تكــن الطبوغرافــيا شيئا بعيدا عن تفكيرى ، أعرفها وأعرف الملاحـــة الجويـــة ، أعـــرف التكتيك الحربى وأقواس النيران والأســلحة المعاونـــة والمواقع التبادلية، وشدتى الخفيفة وأقنعة الغاز، والزمزمية ، وعشر حصيات لزوم انقطاع الماء وكتاب دليل الجندى فى المعركة ، أعرف قواعد حفر الخنادق وانتشار الجنود و.. لا أذكر متى عرفت هذا بالضبط ، كنت أعرف أن لكــل جيش عقيدة قتالية لكن ما هى العقيدة القتالية ؟ ربما كنا نستلمها مع المهمات وضاعت فى التسليم والتسلم ؟!

ولكــن آخر التقارير التى أمامى تقول // إن كل الدول تعــرف أســلحة كل الدول لكن الفرق فى السرعة، فإذا كانت الســرعات قــد وصلت إلى – ٥ فإن المطلوب هو– ٧ بمعنى زيـــادة إمكانية السلاح فى العملية الواحدة فى كل استعمال إلى ملــيون ضعف للقدرة عن غيره أو نفسه قبل التطوير ، ولذلك فإن إطلاق صاروخ من على سطح غواصة تحت الماء سيعيق

تتـــبع مكـــان الصــــاروخ ومكان انطلاقه ويلغى فرصة إعاقته ويفاجئ أجهزته المراقبة أنه وصل إلى الهدف وبفضل الغواصة يغير موقعه فى كل مرة كالعاهرة فلا يتم تدميره ، حتى عندما قلـــد الغير إطلاق الصاروخ أطلقوه من داخل الغواصة فكانت ســـرعة الصاروخ أعلى من سرعة فتح الغواصة فانحشر فيها مدمـــرا .... // أقفلت التقرير الذى راجعته ولكنى دهشت لماذا تـــبقى تقارير مثل هذا فى وقت يسود فيه السلام ، إن هذا من تبعات الماضى السحيق.

//تـــم كشف ٦٥ شخصاً فى مواقع قيادية تورطوا فى عمليات تجسس//

تجسس؟

مازالت هذه العقليات القديمة تحكمنا إنهم يريدون إعاقة مشاريع إنعاش الناس ، إن التطور الهائل فى نفسيات الناس بعد إلغاء قانون التجنيد الإجبارى واعتبار أن هذه الوظائف وظائف مدنية يحق لمن يريد أن يشغلها التقدم إليها كالوظائف العامة ، ذلـــك لأن شـــعار الناس العالمية ، وليس المواطنة وضيق أفق القومـــية والهويـــة، ما الذى يمكن أن يتحقق للفرد فى ظل تلك الـــنظم القديمة ؟ لا شئ ، ولكن فى ظل النظام الجديد يمكن أن يـــتقدم من c100،c200، c300،c@ ويمكن أن يصل إلى 1@ ، كل هذه إمكانات كانت تعوقها الإقليمية البغيضة الضيقة .

– علينا أن نتحرك الآن لزيارة المنطقة الشرقية

نبهــنى مــرافقى لأخــرج من تلك الملفات والتقارير والــتأملات ثم همس : لاحظ أنك تتصرف بشكل منطقى وكل هذا مرصود عليك (وابتسم فابتسمت وقلت) وعليك أيضا.
تصل العربات إلى مكان الجهة الشرقية تتصاعد الروح طائرة على ظهر الجواد أقع فى كوابيس وأحلام غريبة ، ما إن نهبط من السيارات وننتشر لتفقد المكان إلا وأقع فى شقوق الذاكرة ، كنت أود أن أصبح أعمى أو أن يغيض الماء فى شقوق الذاكرة، حتى لا يبقى لهذه اللحظة أى أثر ليستعاد ، لماذا تأتى من بداية الذاكرة الأولى تلك المشاهد التى أرانى فيها قتيلا فى الصحراء والذباب يتجمع على زوايا الفم فى وقدة الظهيرة الشاملة للكون، هــى صحراء لا ينبت فيها إلا العقول والصبار، والحسك، ولا مرّ فى خاطرها قطرة ماء ،

الــرياح دوامات شديدة وأنا مغمض العينين وحيدا فى الصــحراء، ولكــن ذاكــرتى فى أعلى درجات تألقها مدركة بوضوح شديد ما أنا فيه وما سيأتي.

قالــت لى الشوارع : سنشرب دمك ، اجعل هذا اليوم بعيدا قدر الإمكان .

لماذا لا تعمى الذاكرة؟؟

لمــاذا لا تفارقنى لحظة وضع الدبلة والخاتم والساعة وخطــاب فــى ظــرف جواب قائلا للشيخ علوان الذى رفض الهجــرة وظل يقدم لنا البطيخ والبلح والخضار من أرضه مع المــانجو لكــل الســرية: هذه أمانة يا شيخ علوان ، أوصيك

بإيصـــالها إلـــى أهلـــى فى حالة استشهادى قائلا لهم لقد دخل الحرب سعيدا، فقد انتظرتها طويلا بشكل شخصى لغسل عارى وحتى أستطيع أن أسير مرفوع الرأس.

بكى الشيخ علوان وأهل منزله قائلا ، إن شاء الله تُعَاوِدْ بالسلامة، لا تقل هذا الكلام الشر، إن شاء الله نراك بخير.

اســـتمر إطـــلاق نـــيران المدفعية ساعة ونصف حتى عـــبرت القـــوات التى أمامنا ثم جاء دورنا للعبور ، كنت فى القـــارب المطـــاطى ناسيا كل شيء فى العالم إلا الشيخ علوان وأهـــل منزلـــه الذين وقفوا تحت القصف يلوحون لنا ودموعهم تزيد ارتفاع منسوب المياه فى القناة.

لـــم تزد الخضراء البكاء إلا ثقلا ووجعا بالقلب، كنت خاطـــبا ابـــنة العـــم لكنـــنى كنت قد صممت على الزواج من الخضراء وبحثنا معا الإقامة فى الضفة الشرقية يوم تحريرها، لـــم تتكلم ولكنها فى الصباح التالى كانت تصب الماء على يدىّ وأنا أغتسل فرفعت القناع فنظرت وطأطأت رأسى

ـــــــ سبحان الله ... الله أكبر

فأسدلت القناع ، وجاء اليوم لرفع القناع والالتحام.

كـــان يـــتحرك ببدلته العسكرية مع كل أصحابه المدفونين فى ملاجـــئ القـــرود وأقفاص النسانيس، يمرون من خلال خنادق المواصلات والإمداد والتموين ، كان يجرى خارجا من القارب المطاطى جارًا مدفع المكنة، كانت تجره عربة زيل ٦١ ولكنه يجـــره الآن مرتقيا به الساتر الرملى هاتفا الله أكبر غارسا فى

أعلى القمة علما بألوان ثلاث / ربما كان هذا فيلم (المنتصرون) / مـــا أروع الســـينما الأمريكـــية / مـــازال يتحرك ، زخات رصـــاص، سقط متعلقا بالعلم / أين رأيت هذا العلم قبل ذلك؟/ يـــتقدم الآخـــرون جحيماً بحرياً ، موجات لسيل طال حبسه لا تـــتوقف فى اندفاع كاسح ، أذاب الماء المنطلق الساتر الرملي، فرموا بالعدو بعيدا وانفتح المدى شهادة ميلاد المنتصرين / اعلم أنهـــم سيُخدعون ولن يهنئوا بنصرهم هذا الذى كنتم تزعمون ، نحـــن أولياؤكم فى النصر والهزيمة والتسوية الإجبارية واجبة وإلا فالجحيم اليابانى لنجزاكى فى انتظاركم/

اندفعـــت مـــن مكانى متذكرا مشاهد الزهو من رؤية طوابـــير طويلة من الذل والهوان للأسرى الذين كانوا ينهبون الأرض سبع سنوات، وذلك وعد غير مكذوب ، كانت المعدات لعب كارتون مشتعلة ، والإنسان بعناده مقتول، والرمال مشوية بالـــنار، شديدة هى لعبة الصراع بين إرادتين، والوقوع فى يد الآخـــر لا يعـــنى إلا البحث فى منحنيات الذاكرة عن نظريات تدريب من خلالها يعاد الترتيب .

كانت أياماً طويلة نعيش فيها داخل قفص القرود ننحنى باستمرار فى الخنادق ، فى الهناجر، فى الملاجئ ،وفى خنادق التوصـــيل، والمواقـــع التبادلية ، قليلة هى أيام الفرح بلقاء من تحب ، لم يعد الحب إلا اجتياز الماء ، لم يعد له معنى إلا قتل هذا الانحناء الكلى الذى جعلنا نؤجل الزواج خوفا من أن يصبح أولادنا يحملون ميراث الانحناء، يولدون منحنين.

لم تكن العودة من هناك إلى العمق لإعادة التدريب هى التدريب ولكن كانت الترتيب للذاكرة وللنفس من الداخل .

كثـيرا ما كنت أنط سور المعسكر بجوار كلية البنات واضـعا الباريه فى كتّافة القميص تحت الرتبة العسكرية مارا على المقهى حتى أرتب نفسي، وألمع الحذاء ، أشرب الشاى ، والمعسـل ، أمشط شعري، أمسح نظارتى الطبية وأغدو روحا طائرة إلى المحبوب .

– أنت هنا فى القلب ، أقدامك تسير عليه

– وأنا أقدامى لا تصل إلى بقية قلبك

آخذهـا فـى حضـنى ولا أجد فوق رمال شعرها إلا دموعى ، فكأنما أخذونى من حضن أمى صغيرا كنت ، وألقوا بى فى عراء الشتاء والبرد / هذه الذكرى التى ستظل تطاردنى بقـية حـياتى /، حدثت مرتين، الأولى يوم أخذوا أبى وكنت صـغيرا فـى بيـت أبى ، والثانية مرات كثيرة وأنا بالجامعة وبعدها ، ذكرى تمنع الإمساك بحبل الانتماء .

سـبع سـنوات فى هيئة أسد تحمل علامة النصر فى آخـرها ، لكـنها كانـت سنوات قهر ، مؤجلة هى الأحلام ، والدمـوع ، والشهوة ، ولمس قطع الأثاث ، ورائحة البياضات وقطـن التنجيد فى سرير الزواج ، لم يكن أمامنا إلا لقاء اللهفة وتأجـيل امتداد الأشواق ودلق المشاعر أمام الناس فى المقاهى والكازيـنوهات ، والعـواء باللـيل إثر قنص صديقك الواقف بجـوارك أو المـار بالخندق، أو انطراح الجسد حاملا العشاء

لحظـــة رفع رأسه، وانفلات الجميع من الاستعداد لتسليم الجثة إلـــى الأهـــل ، ومطـــاردة صور الأشياء الموجودة فى جيوب السترة أو الكراسته // مشط ، صورة العائلة ، صورة الحبيبة ، تذكـــرتان سينما ، تصريح ، جنيه مقطوع نصفين غير موجود النصـــف الآخر والباقى عليه محمد رسول الله ، عشر جنيهات فى مكان وحدها ، سبع جنيهات ونصف وربع الجنيه ، وعشرة قروش فضية وقطعة لبان دكر ، علبة سجائر كيلوباترا بها ستة سجائر ونصف غير مشتعل، ومشط كبريت ، إيصال أستوديو العـــائلات بعـــدد صور والاستلام مضى عليه ثلاثة أيام ، دبلة حفر عليها هناء متولى ٩/١٦ / ٠//

دموع تنزل من جوانب العينين على الصدغين صاعدة من الكعبين نازحة كماء البئر أو كنسغ الأشجار .

سبع سنوات عجاف يأكلن سبعاً سمان ، وكنا نظن بعد النصر بالدم ، أن سبع سنبلات خضر قادمة ، أو سيأتى عام فيه يغاث الناس وفيه يعْصِرُون ، لم نكن نتوقع أبدا أن تكون الأيام التالية يُعصرُ فيها الناس .

ـــــ الحركة للأمام يا فندم

نبهنى سكرتيرى ومساعدى وكنت قد سرحت قليلا

فقلت : نعم .. نعم

مـــرت العربات وكنت فى وسط قول التحرك ، كانت القـــرى الســـياحية، والشواطئ الخاصة، والحدائق المدلهمة ، وبشر أكثر بياضا ولا ملابس ولا زعل ، ومياه ربما هى نفس

المياه لكنهم ليسوا نفس البشر ، وليست هى تلك الأرض ، كما أنـــنى لست أنا، فلماذا يقرضنى هذا الشعور الزنيم بوجهه اللئيم ليخرجـــنى مـــن مهمة الكرسى تمتمت : التحول السريع نحو الأفضل.

ـــــــــــ هل صدقتم ما أقول لكم ، أنا عبد العال يا كلاب

لم يرد علىّ أحد ، نظرت مرة إلى سكرتيرى ومرة إلى مساعدى ، قال المساعد بنظرة كالشرك : كيف ؟ أرى أن رأيك غـــير هـــذا ، خاصة وأنك لم تر المنطقة مطلقا فكيف عرفت بسرعة التحول ؟ .

كـــدت أقـــول أنها بنت دمى ، وسبع سنوات من عماء الانـــتظار، وتأجيل كرامتك واسمك، وتصبح دفعة ، أو حضرة الضابط، أو نمرة ، أو أسد على حسب، كيف لا أعرفها، ولكنى صمت .

ــــــ يبدو أن الذاكرة مازالت تحمل بعض أمراضك القديمة

قال ذلك مساعدى متوعدا فلم أرد ونظرت إلى الأمام .

كـــان يضـــحك ويقهقه وهو على أعلى نقطة على علم السيارة لابسا بدلته البنية ممسكا بوردته الحمراء مبتسما كان. حبست صرختى وقلت فى نفسي: حلمى أم أنا الذى يطاردني؟

لم أحس بنفسى إلا فى خيمة الأكسوجين بعد الإسعافات ثم عدت إلى السيارة أو أعادونى فلم أعرف ولكنه همس فى أذنى بعد خروجنا من المخزن

ـــــــــ لم تعد تصلح لدورك الجديد ولا للعودة لدورك القديم

كدت أصرخ مسترحما ساقطا على نعل حذائه إلا أنه قد غاب.

ـــــــ اعتدل ، صرت كلبا مثلهم، الكل قبض الريح باطل، لكن أنا عبد العال يا كلاب ، عبد العال الذى لم ينحن ضاربا كل الظروف بالحذاء، ففزت بكرامتى وحريتى والعراء والجنون، لكنى رغباتكم المكبوتة يا كلاب.

* * *

الدنـــيا امرأة عارية تغمز لك لتتبعها ، وكلما هممتَ ، ابـــتعدتْ متقلبة بفصولها الأربعة وبألف وجه، وعندما يغمرك الـــيأس وتكـــاد تلامس قرارك بالتوقف .. تكشف لك جزء من مفاتـــنها وتمنحك على البعد القليل فتبتسم، وتدخل شرك الغواية بها ، وعندما تمسكها وتمسح على سرتها تدفعك فى رحمها/إنه الموت/.

الحياة لا يمكن أن تكون بنت الانتظار فى الحديقة ولكن لمـــاذا أنـــا من تضرب له المواعيد تحمل فى داخلها العواميد كأننى سليمان الحلبى بميعاده المشهور ، هل يحدث هذا مع كل الناس ؟ لماذا يخطر ببالى صديقى د. عبد الله ؟ هو صديقى ولا بد أن أثبته بلقبه خوفا من التأويل من أى لكع بن لكع ، ويكفى مـــا حدث مع نصر*، أو ما صار مثلا فى الوليمة** ، كأنما لم نشبع من الأمثال القديمة والأدب الشعبى فبحثنا عن أمثلة جديدة حتى وإن أثبتت خيبتنا!!

أصـــبح الـــبوح صـــوت الســـكات ونذير الخيال وابن الأحلام، ومرافقة نفسك وبعدك عن الآخرين، هل كنت مجنونا لحشو ملابس بالليل فى سروال ذاكرة الحياة ؟

صـــرت أترقـــب مواعيد الحديقة دون موعد ، أدمنت التهديد والتخفيض للرتب والتحول إلى / أول وزر سكاى هوك/ وهــذا لقــب مـــن مخلفات الإنسان القديم يطلق على الشخص الصـــالح لكـــل شيء، وكذلك المنتهى مفعوله كرأى فيكون كما يـــريدون، فيصبح رقما يمكن أن يضيع فإن زاد صار غيره، وإن نقــص صـــار غيره، كل يوم وكل لحظة ليس هو، ولكنه منتظم فى سلك المؤسسة وهو روحها ، انتماؤه للأوامر والتنفيذ الدقيق دون الاستفسار.

ماذا عليهم لو تركونى سائراً فى دغل التذكر والوحشة الحمـــيمة، لا أبصر إلاها طيفا ، أقع ما بين الرؤيا والتصديق واقعـــا ومنغمســـا فى دوامة الشك وخندق البين بين، تبين قليلا ملامـــح القادم من يوم أو أشهر أو سنوات فقدت الأشياء قيمتها واتـــزانها وثقلها فأنا أنزلق فى سرعة مجنونة نحو قاع هاوية كبـــيرة عمـــيقة بجـــوف أسود هائل يمتص كل ضوء كمقابر الـــنجوم، وأرى أن كـــل ما حولى ينزلق معى بينما يقف على طـــرف الحافة ويدير سرعة السقوط أولئك الذين يتحكمون فى

* د. نصر أبو زيد.

** وليمة لأعشاب البحر // حيدر حيدر //

هـــذه المصحة ، لم أر أحدا منهم وأظن أنهم هيئات غريبة ذات قدرات خاصة.

كـــان لابـــد لى من الهروب من هذا المكان وبأقصى ســـرعة ليس خوفا من الشنق أو من الدمار فهو قادم لا محالة، ولكن عندى رسالة واضحة شديدة الوضوح تجلت لى الآن لابد أن أبلغها للناس لعلهم .... لا أجد ما أكتبه بعد لعلهم لأنهم ربما لا يلحقـــون إتمـــام سماعى لأننا سنبتلع بأسرع من الانتقال من حـــرف إلى آخر، لابد من.. لماذا حالى هكذا من يوم زيارتى للجبهة الشرقية؟ وصرت مدمنا للحديقة و..

ـــــــ الإدارة تطلبك الآن

لم يكن هذا غير أحد النزلاء بالمستشفي.

ســـرت وراءه إلـــى الاتجـــاه الأيمن ثم إلى اليسار ثم اخترق طريقا فى الوسط ثم انحدر بالطريق إلى سرداب عميق /لـــم يكـــن مهتما بإجراءات أمنية كالتى تتخذ فى الدخول أو الخـــروج مـــن وإلى المخزن /، أحسست بشيء ثقيل يصطدم برأسى ، أفقت لأجدنى فى قاعة بها مساعدى وسكرتيرى وكل العاملين بالمستشفى وكل النزلاء ماعدا عدد قليل، ففهمت أننى الوحـــيد الغريـــب عـــن هذا المكان ، فربما القلة القليلة الغير موجودة الآن تكون لها أعمالها الخاصة؟

انطلقـــت الأصـــوات ببعدها الهائل المتضخم كصوت ارتطام المجرات .

ـــــــــ تفكر فى الهرب إذن ، من حقك أن تجرب ، جئت هنا باختيارك ، دخلت المخزن باختيارك مارست كل مهام عملـــك باختيارك / رغم التقصير الشديد والإهمال ، والتفكير الارتـــدادى أثناء العمل ولا يخفى عليك أننا نرصدك باستمرار حـــتى أثناء نومك، ولكن ما لا تعرفه أننا أنفقنا عشرات السنين فى متابعتك وخلق كل الظروف التى أحاطت بك حتى تأتى هنا باختـــيارك، مركز الأبحاث ، أحمد بركات ، أحمد المصرى ، عـــبد القـــادر الأســـد، العمارة التى كنت تسكن، خراب الحى وإزالته ليس له علاقة بقرارك ولكنه قرارنا حتى لا تجد ما تلجأ إليه ، حتى لو كان مجرد ذكري، لأنها بذكرياتها التى لم نستطع اقتلاعها مع بعض الجذور الغريبة للضمير هى التى جعلتك فى هـــذه الحالـــة من التردد، ولأنك مازلت رومانسيا فإنك مازلت تفكر فى الهرب ، لكن إلى أين؟ هل ستذهب إليها؟

ـــــــــــــ، لن تراها مطلقاً ولن تكتب مذكراتها التى تحفظهـــا فـــى رأسك، وقد اختارتك لتقيم معك علاقة الموت، لتموتا بلا سبب ، نحن نعرف أن غيرك سيكتب المذكرات لكن مـــن بـــاب الحـــرص دبرنا لك حادث السيارة كإعاقة حتى لا تسافر، ولم يعد لك أى شيء حتى أماكن ذكرياتها وآثار البهجة والوحشـــة تـــم إزالـــتها مع إزالة ليس الشقة فقط التى كنتما تســـكناها ولكن الحى كله حتى لا تتنفس الذكريات بينكما، فإلى أين الفرار؟ من سيصدق علاقتك بها؟ ستعاد إلينا هنا مجنونا فى أحسن الأحوال.

ـــــــــ كـــل ما كان أنتم صنعتموه، نعم الصانع والصنعة ونعم الصبر ، وأعلن أسفي وندمي ، وخطأ أفكارى ، ولكـــن أطلب العطف بالعفو والسماح فأنا من بقايا المجتمعات المتخلفة، لكنى أطلب السماح باستفسار صغير ، كل شيء أنتم جهزتموه وقدمنا لكم الشكر ، لكن هل حبيبتى والجحيم أيضا من صناعتكم؟

ـــــــــ لا... لم يكن يعنينا الأمر وظنناك عاقلا، تقيم علاقات صداقة ، ولكن وجدناك تحفر وتمزج دما بدم.

ـــــ وكذلك ذلك الذى يقف على بوابة الجحيم بوردته وبدلته البنية الشتوية فى عز الصيف؟

ـــــــــ هذا هو أنت بكل ما تكون ممثلا لأمة تأخذ قـــرارها الخطأ وتنفذه بثقة ، فتلبس ملابس الشتاء وهى واقفة أمـــام بوابة جهنم وبشكل رومانسى بوردته الحمراء تلك ، نحن أخرجناه من داخلك هكذا ، أما الجحيم فمن صناعتكم أنتم

ـــــــــ نحن؟لا

ـــــ أنا عبد العال يا كلاب/ أنا عبد العال يا كلاب يا كلالابببب، حذرتكم كثيرا يا كلاب من الكلاب حتى صرتم كلابا مثلهم.

ـــــ هذا اختياركم وهذا صوت نفوسكم، نحن نعطى الفرصـــة لداخلكـــم أن يتنفس فلا يتنفس إلا شرا،لا تخرج عن الموضوع بادعاء البطولة وترديد كلمات غيرك.

ـــــــــــ الجحيم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، تحت اســم الحضـــارة، والتحرر، والتقدم ، والنهوض ، والبعد عن سلوكيات المجتمعات القبلية، والتحرك بمنطق العصر والعولمة والخصخصة و...

ـــــــــــ إنتهى كل شيء وأنت الآن فى انتظار قرار اللجنة.

* * *

أفقــت لأجدنـــى فـــى الحديقة وأحسست أن ألف عين تترصـــدنى ولكنى تحركت يمينا وشمالا مداعبا ساعات المغيب التى تشرق من روحى .

كـــان كل شيء مدمجاً فى عماء وأنا أجرى باحثا عن أى شيء أقيم عليه انهيارت نفسى وسط صحارى الرعب كان عامود نور يقف وحيداً وقد حنى هامته بشكل نهائى ، قلت فى نفسى ما الذى أبقى عليك وسط هذا الدمار ؟

تذكـــرت كانت تقف عند هذا العامود تنتظرنى ، وكان هذا مكان لقائنا المعتاد ربما نجا العامود من الذبح لأعلق عليه خيـــباتى وانتصارات قلبي، وأجد مكانا أبعث منه قبلاتى إليها، زعقت : إليك قادم أنا.

كنـــت أجرى لأسبق نفسى لأصل إليها قبل أن يصلوا إلينا ، لأننى منذ أن هربت من المستشفى مهرولا ، كنت أعرف

أن قـــرار الإعدام والتخلص منى سيكون قرارهم فإذا كان على كل حال هو الموت فلأمت بإرادتى مرة.

لمحـــته كان يقف بعيداً منتصبا وسط الوحدة قلت قادم إليك من جذور ألمي.

كـــان العـــرق الـــذى يتصـــبب منى تشربه الصخور والأحجار الكبيرة، وأنا فى جهد مستمر للرقى والصعود متشبثا بآمال عراض أن أجدها عند القمة هناك ، أو أستحضرها طيفا، لم أنظر خلفى ولا أسفلى ولكنى كنت مستمرا فى الصعود حتى غمـــرنى هـــواء عليل / مريض / مخنوق يكاد يضج برائحة الحمى والكوليرا والتيفود.

جلســـت متأملا هذا الخراب الشامل ، والنهر الجاف ، والصحارى المزروعة بالهياكل العظمية ، وقلت: هو الآن قبل أن تشوى الأرض فى جحيم الامتلاك.

ـــــــ تعالى يا بهجة الروح ويا نسيم الجمال /كانت الكلمـــات ماســـخة وســـط هذا الخراب / لم يأت أحد، تعال يا مـــروان يا حلبى بما أنشده الحلاج ، لم يأت أحد ، تعال يا ابن عـــربى وأزعق/ أن الصبا لا ترجع الأحباب/ ، لم يزعق أحد ولـــم يأت أحد ، فاستحضرتها اسما كومته على القمة بجوارى فـــوق الهـــرم الأكبر، ومسحت عليه فشهق الكون ، فعرفت أن الكون صحيح، فإذا كان الكون معافىً فلماذا أنزل نعش الحزن ليدفن فى عافيتي؟.....

مــررتُ يــدى عليه كثيرا فأضاء الكون فضجت كل حــروف العشــق ببداديــتى ، وصرخت وأنا واقف فوق الهرم الأكــبر، وهـــى اسم /جواهر / بين يدىّ وقلت : اللهم اعطنى القــدرة وكــل مـــن معى ومن فى ذاكرتى ومن لم أذكر على الصــمود فـــى وجـــه السل، والجرب، وعواصف الصحراء، والنفايات الذرية ، وجنون البقر، والعولمة، وكذب المؤسسات، والدواء المحروق، والحكام والمحكومين السلبيين.

اللهم أكرمنا بأن نلحق لنا قبرا فى الوطن.

وأن نمــوت على الأرض التى ولدنا عليها ولا نطرد منها ، واجعل لنا القدرة على أن نصدق أنه وطن.

أعطـــنا القـــدرة علـــى تحمـــل القـــنابل الذريـــة ، والهيدروجينـــية، وغـــاز الخـــردل، والنشـــادر، وميكروبات الصـــواريخ، وإبداعات الهندسة الوراثية، وتشويه الحق، وتسيد الباطل، وتخنث الرجال، وسطوة الشواذ على كراسى القرارات. بـــارك فى ماء النيل ولا تمنعه من الجريان ، بارك فى الحنطة والذرة ولا تجعلهما فى عداد الندرة.

أعطـــنا القـــدرة على تحمل المحللين، ورجال الدين ، والرقباء القاعدين على الصدور ظلما وعدوانا.

إمنحـــنا القـــدرة علـــى تحمل المبيدات، والمخدرات، والجنس ، وأعطنا طاقات الخيال لتحمل الواقع واستيعابه.

اللهـــم ارحـــم الممسوســـين، والمجانين، والخارجين، والشاردين، وأصحاب الرؤيا الواضحة ، ووضح للنساء الفرق بين الرجل والمرأة، والشارع والبيت .

اللهـــم بـــارك فى الحب والحبيبات ، وأكثر من الكلام القلـــيل الجميل الذى يتكسر على شفاه المحبين فيذيب قلوبهم ، اللهـــم اجعـــل العيون أجمل والرغبات أقوى ، وامنحنى القدرة علـــى حـــب عرق المحبوبات أكثر من العطر ، اللهم اكتبنى عـــندك فـــى باب العرش الصوفى النزق ، أدمنى عشقا طلقا، إمنحـــنى ملـــيون محـــبوبة كل واحدة لا تشبه الأخرى ، اللهم اعطـــنى القدرة على القيام بالأمر خير قيام ، إمنحنا القدرة أن نقـــول هذه خيانة ولا نجتهد ولا نبرر ونحلل وتطغى مصالحنا عليـــنا حتى نعمى بالمكاسب الصغيرة. يارب رغبة أخرى بلا زعـــل إجعلها لى، أرنى وجهها الصبوح وكفى، إن لم يكن إلاّ هى وسط هذا الخراب لكفى فبها سأعيد العالم.

كـــان هذا قبل اندفاعى منتحرا من أعلى الهرم الأكبر هـــرم خوفـــى ورعـــبى وجنوني، وأنا أرى البلاد فى ضباب الوضوح طوابيراً من الأسرى العراة، وكنت أنشد : هذى البلاد تجاوزت وجعي.

مـــا الذى أفعله إذن أكثر من هذا ؟ هل أجرى وأزعق على الناس وأقول فستعلمون ما أقول لكم ولهم وما يجرى ومن ســـمع كلاميى ى ى ى ى ى ى ى ى ي. كان هذا ما دار فى رأسى فى لحظة القفز ثم................

(٧)

مســاحة بيضاء وضوء مكتوم يرشح من تحت ستائر خضــراء / لابــد أننى فى الجنة يا سلام الحمد لله/، بحركة لا إرادية اندفعت يدىّ تتحسس وجهى فاصطدمت بشيء ما التفت فوجدت أننى فى حجرة يوحى شكلها بأننى بمستشفى /هل فى الجنة مستشفيات؟.

تأملت الحجرة والتفت فى كل اتجاه كل شيء عادى ، الجــدران عارية إلا من صورة رئيس المؤسسة وضعت لزوم الإفاقة ، فعرفت أننا بحجرة الإفاقة ، وتنبأت أننى قد أجريت لى جراحة/ ربما استئصال الضمير / ؟

كنت أود أن أقول لها لا تدخلى نفسك فى دائرة الحنين/ لــيس ســهل علـــيّ/ وخوفا عليها/ وقلبى لا يحتمل ارتعاشات الهــواء المــثقل بالحنيــن الذى يحيط بها ، ولكننى أبص على وجههــا كل صباح وأحس نفسى والعالم منمنما: إن لم يكن إلا أنت لكفى .

ولا أزيــد. كأنما ملايين الخليقة الحسنة قد اختصرت فيك ، فتخمر فيك الجمال وتقطر منك الجمال ندى يشف الروح

فتهـــتز جـــراحاتها لهبا مقدسا حارقا ملقيا بى فى أنهار الشطح فأكــابد غــيابك فى وجودك ، فلا أحد يراك إلاى ، ربما كنت الــبذرة النقــية مـــن الـــنور الخـــالص للنور وسلالات الطهر والملائكـــة، ولمـــا كنت أمر برموش عينىَ على زغب وجهك وجسمك منفلتا تحت إسار ثوبك مندسا فى دفئك ، وأقلّبك على مـــراود الروح، فتقوم قيامتنا داخلين إلى الفردوس فى قصور البلور ،

إنهـــار قصر البلور تحت أنقاض عمليات الهدم ، ليس لـــى أى ذنب فهم الذين أمسكوا بيدى ووقعوا، صحيح أن القلم كان فى يدى ولكن من يملك الإرادة؟

لابد من هدم هذا المستشفى / المورستان / من أساسه حـــتى تفـــنى هذه الطائفة ، آه لو تسلق أحد الحبل الواصل بين الإدارة والمستشـــفى ليصل إلى الجهة الأخرى ليعرف فقط ما يدور هناك وماذا يراد لنا؟

- لمن ؟

- لنا؟

- أنت أصبحت من هذه المؤسسة

- يا رجل أنا كنت أريد أن أندس وسطهم لأعرف ماذا يفعلون

- الـــتى تخـــون هى الأخرى لم تكن تقصد الخيانة ، ولكـــنها كانـــت تريد أن تعرف ما يحدث فقط ، ولماذا تخون

النســـاء؟ وهل هناك شيء مختلف؟ أنا أعرف أنك لن تصدقنى وستقول امتلأ الكون حتى فاض جياعا ومقهورين

- لا سأقول لك

كل شيء رائق البهجة يبدو حولنا
أيها الساقى بما شئت اسقنا
ثم اسقنا
واملأ الكون ب...

- أنـــت تغنى ولا تأخذ كلامى مأخذ الجد/ هل أنفض هذا كله عن دماغى وأكبر دماغى حتى تصير كالمحيط وأعيش عطـــية الهطل/ وأترك الحبل على الغارب لهم ، لتلك الأصابع المندسة وأقول كله نصيب ومكتوب؟

أم أخرج مكفرا العالم ومهاجرا إلى الصحراء عائدا فى وجـــه كفار مكة بالسلاح واضعا نصب عينىّ // سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ، فنهاه ، فقتله//

العـــالم يمر بالأفغنة ثم البلقنة ثم الانفصالات العرقية، فتتفســـخ الكـــيانات الكبـــيرة إلى كيانات صغيرة هشة لا تبنى حضـــارة، ولا تكـــون قويـــة للدفاع عن نفسها ، فتصير تابعة بإرادتهـــا ويسهل حكمها وتغيير مصيرها بضغطه واحدة على بعد آلاف الأميال ، إفهم .

- أنـــا فاهم لكنك لا تريد أن تسمعنى ، ماذا أفعل هل أســـمع ما قلت لك عليه سابقا أم أسمع نظريات التكوين المتغير للبلوريـــتاريا فى عالم متغير تغير فيه نشاط رأس المال ودورة

عملـــه فلابـــد للعمـــال من متابعة تطوير نظرياتهم عن طريق الطليعة المثقفة الراصدة وتكوين تنظيمات جديدة نقابية تتصدى للشـــركات مـــتعددة الجنسية ليس بغرض فرض رأى عليها ، ولكن من باب التشاور حتى نصل إلى حل ، ولا بد من المرونة والـــتفاوض وعـــدم الجلـــوس على مائدة المفاوضات بشروط مسبقة، حيث أن سقف العالم تغير

– القـــادر ينتزع حقه ولا يحتاج إلى تبريرات ، إسمع كـــلام عبد العال وانتظر ماء صوته ليسقى عطش الروح ثم لا تحدثـــنى عـــنهم فـــيكفى فضائحهم فى رشاوى شركة لوكهيد، والـــتمويل، والمـــنظمات الأهلية إقرأ كتاب سناء المصرى عن التمويل يا محترم.

– مـــن أنت ولماذا جئت تفسد علىّ راحتى أنا مريض ومازلت بالمستشفي.

لم يكن أحد حولى ولكنى تلفّتُ ، فمازال السقف أبيض ولم يتغير!، فلماذا تغير سقف العالم/ لابد أن السكان الذين فوق يدكـــون السقف على من أسفلهم فيضيقون عليهم مساحة الهواء فلا يأخذون نفسهم / كاتم نفسي/

باب النفس مقفل أقصد باب الحجرة مقفل
مازال السقف أبيض
وأنا ساكن (فيه)
(فيه) ليس فمه ، ولكن بداخله
والهدوء ساكن فى كل هذا السكون

لا ممرض، ولا ممرضة، ولا هواء
وحدى مع اللاشيء مسلوبا وصامته
والسماء لدى السماء تسربلت خلف العمائر والمعابد
لم يبق من أحد تصادف أو تعاهد
/لم تبق عمائر أو معابد/

لا يمكن لقرار واحد أن يحول البلد إلى خرابة؟

ولمـــاذا عـــندما سألت المسئول عن من صنع الجحيم ضحك وقال نحن لم نصنع شيء ؟

ماذا كان يقصد بالضبط؟

كنت قد أزحت الغطاء ونزلت من على السرير متجولا بالحجرة، ثم خرجت فوجدته أمامى

ـــــــ أى خدمات

ـــــــ دورة المياه؟

أشار ناحية آخر الممر،

لمـــاذا لم تلحق دورة المياه مع حجرة المريض ؟ هل خوفا من الهرب ؟

دخلت الدورة واسترحت ، وفكرت فى أن أستحم ولكنى صـــرفت الفكـــرة مـــن رأسى وخرجت من دورة المياه متلفتا فوجدتـــه أمامى يدفع عربة أمامه وناولنى من عليها كيسا شفافا به ملابس داخلية وجلباب ، وفوطة.

كنـــت تحت المياه أفكر فى جدوى الهرب، هل يمكننى أن أعـــرف أســـرارهم ثم أكشفها عندما يحين الحين ، أم أظل أعمل معهم حتى أرستق نفسى ثم أخلع؟

أنـــت لـــن تترك المستشفى لأنك لم تكن فى منصب ما طوال حياتك ولم تكن صاحب سلطة وكان كلامك نقداً من سطح عدم الإمكان وقصر ذيل يا أزعر ،

لا أنا كاشف أشياء لابد أن يعرفها الناس

نـــاس من ، أما زلت تتذكر يا رب بلدى وحبايبى ، والمجتمع والناس ، هؤلاء ماتوا منذ زمن طويل من أيام جمال عبد الناصر ماتوا معه ، كان حلما جنينا جاء إلى الأرض فوجد أنها لا تتحمل فكرته فأخذ ناسه ورحل، وهؤلاء هم المجتمع والناس/

أنـــت لا تفهم أى شيء وتريد أن تعكنن عليّ، ثم هناك طرق مقاومة منها السلبية ولم أكن كذلك أبدا فى يوم من الأيام، أو الـــتهكم والسخرية ، أو اليأس والدفع بالنفس تحت عجلات اللامبالاة، معنى هذا أننا نتيح الفرصة لآخرين لا نعرف من هم ليديروا العمل

هـــل تعـــرف مـــن أنت ؟ ، إذا كنت قد جئت إلى هنا بخمس شخصيات إلى الآن لا أعرف من أنت فيهم؟ فما جدوى وجودك ، ثم إن مـــا تعـــرف يعـــرفه مـــن بقـــى على قيد الحياة بعد التجارب الذرية واليورانـــيوم المخصب الملقى فى العراق بأموالنا على أراضينا غضبنا أم رضـــينا ، ثم لماذا لا ترحل إذا كان الوضع غير مريح ويخفضونك كل يوم درجات والآن ليس أمامهم إلا الخلاص منك وأنت تعرف ذلك.

تريد أن تكون أنت العارف بكل شيء والقادر والمهيمن والذى تسبق الحوادث وتعرف ما سيحدث لسنوات قادمة / أنت بذلــك تفســد الرواية / فلم يعد المؤلف هو ذلك القادر المهيمن صاحب الأحكام الكلية الجازمة ، لأنه ببساطة ليست هناك أشياء يقينية حتى الموت بعده حياة ، لا تريد أن تصدق أنت حر

أنا لست المؤلف ، أنظر جيداً أمامك

كان يقف أمامى بوردته الحمراء ضاحكا،

صرخت من الفزع : لا يمكن ، غير معقول

قال ولأول مرة أتأكد أن الصوت صادر من جهته :

لمــاذا ، وهــل كان معقول أن تحكم وتتخذ القرارات وتصير (مالك)

قلت : مالك بن النبي

ـــ مالك خازن النار والمسئول عن الجحيم، وأنا كنت رداءك الخـــارجى بكارثك ، أنتظرك حتى أسلمك أنت وأمثالك فكلكـــم واحد ما زرعت أيديكم ، حرست شركم لكم فمبارك فى النار أنت وأمثالك

قلت : ماذا أفعل الآن ؟

ـــــــــ كـــان اسمها ما العمل ، ليس أمامك إلا أن تنتحر، وإذا نجحت فى الانتحار / وأعتقد أنك لن تفعل مع العلم إذا فعلت فلن يمنعك أحد/ فتكون قد حققت شيئا جميلا، ويكون أمامك عدة اختيارات:

١- أن تــرجع إلى المستشفى بعد إنقاذك وتظل رجل الاختــبارات على بقايا الضمير فى العصور السابقة لجماعات بشرية متخلفة

٢- أو أن تهــرب من المستشفى فتدهسك سيارة قضاء وقدرا طبعا أنت تعرف

أمـــا إذا نجحـــت فـــى الانتحار ومت فعلا وهذا أمر مشكوك فيه فهناك عدة احتمالات

أ- أن يشـــك فـــى موتـــك وتصبح قضية جاهزة لأى شخص يراد التخلص منه

ب- أن يصـــبح موتـــك عـــارا ويفتضح أمر تخريبك لمشروعات الوطن أو تكون عميلا للعدو / ليس مهما من يكون العدو فاللحظة ستفرضه فرضا/.

ج- أن يكـــون موتـــك عاديـــا / ربما يصدر مرسوما باعتلال صحتك أو لا يصدر/

المهـــم عشـــت أو مت لن تكون بطلا ، فأنت عشقت الســـلطة وأنصـــحك بالـــرجوع إلـــيها/ فهـــم سيتخلصـــون مـــنك بمعرفـــتهم/ وقلـــنا لك سابقا السلطان هو من لا يعرفه السلطان

ـــــ من أنت ولماذا تأتى كلما فكرت، لا تتركنى حتى وأنا بالحمام

ــــ أنت تعرف من أنا، أنا بقايا شيء كان فى داخلك يتلاشى الآن فالوداع

ــــــ أنا لا أريد أن أعرفك ، ولكن فقط كيف نجوت من الدفن وأنا دفنتك عميقا ، وأين كنت طوال هذه المدة؟

كـــان الطرق على الباب قد تزايد فصدر صوت داخل الحمام ــــــــ لماذا تصرخ ، طبعا مازلت تفكر ؟

ــــــ لا ، أنا لا أفكر ، لقد ذهب ولن يعود

ــــــ كنت أظنك تفكر أنت أصبحت كلب من الكلاب

ــــــ من أنت ؟

ــــــ أنا عبد العال يا كلاب

انقطع الصوت فخرجت من الحمام ثم اكتشفت أننى لم ألـــبس ملابسى وسمعت قهقهة عالية فأدركت عريى، ولكنى لم أهـــتم أبدا وتبسمت حتى أبدو مرحا، وفكرت فى جدوى ارتداء ملابسي.

أنـــا يطاردنى أكثر من صوت أو ربما الرجل الوردة يتخفى فى أكثر من صوت.

لكن صوت عبد العال صوت له خصوصية.

*   *   *

(٨)

تحركــت السـيارة / لـم يحدث بهذا الشكل /سارت السـيارة/ لم أحس بسيرها / إذن انتقلت بنا السيارة لا أعرف كـيف ودون أن أعـرف مـتى بدأت حركتها ، وكنت أترقب سيرها، لكن الستائر مسدلة ومعى شخص بالسيارة ، فجأة فُتح الـباب وقـيل تفضل/ كنت أتوقع أن أجد بيتا وأولاداً وزوجة أعرفهم ويحبوننى وأكتشف أننى أحبهم، عادى جدا وهذا حقى / ولكـن كـان بيتا جميلاً، تقدمنى مرافقي، دخلنا إلى بهو واسع فتركـنى وغـاب وظللت واقفا فترة طويلة وبحثت عن كرسى لأسـتريح علـيه فلـم أجـد، كـان التعب قد بدأ يرمى بثقله فـوق أكتافى وأحس بتعب فى المفاصل والظهر، احتجت دورة المياه بشدة فلم أجد ، واكتشفت أننى لم أتناول حبوب السكر من يوميـن، بدأ العرق يتصبب من كل جسدى وأحسست بالعطش وأصـبحت قدرتـى علـى مقاومة التبول أمراً مشكوكاً فيه ، أحسسـت أنـنى أغـرق فى دوامة عميقة ، وفى آخر درجات الوعى بعيدا عند البياض الذى يمسح الذاكرة أحسست بأيد كثيرة تحملني.

أفقــت لأجدنـــى فى مكان مظلم ضيق أكاد أجلس فيه القرفصاء، الجدران تراب متماسك قليلا ليس له رائحة الأرض الــبكر ، ولا الطيــن، فعرفت أنه حفر منذ أمد بعيد ، من غير تفكــير كثير ولا يحتاج الأمر إلى ذكاء حين يخطر على بالك التفكير فى الإضاءة ، وكذلك أن تحاول أن تفهم وضعك ، فلا تهــرب من أنه أسر وتحديد إقامة بدلا من الموت ، إذن هناك أمل فى فرصة (أنه يمكن الاستفادة منه) ربما فى فرصة قادمة، إذن أنــت مازلــت صـــالحا للوجود، فقد تغيرت تلك النظرية المسماة بالفيض والصدور فصار أقطاب المؤسسة لازم الوجود، ومـــا حولهـــم فـــى الكـــثافة الأولـــى واجب الوجود ثم جميع البشـــر والحـــيوانات والآلات بيـــن قســـمين صـــالح للوجود، ومنتهى.

لكن مالا يمكن حله ، كيف يمكن قضاء حاجتى فى هذا الخندق؟.

ثلاث طرقات، كالمسرح تماما ولكنها من أعلى الرأس ، أدركت أن الباب فوق رأسى ، إذن ليس هذا خندقا ولكنه لحد/ أى رعب هذا الذى يلفني؟ من لى بكمية كبيرة من المخدر حتى لا أحس بما هو آت /

الحمـــد لله الـــذى خلق العبقرى الذى اخترع المورفين والبنج،

هلت طاقة من ضوء شاحب من أعلى ومُدَّ حبل طويل فـــى آخره أنشوطة كحبل المقصلة ، دخلت فى الأنشوطة حتى

وســطى وشددتها عليّ، ورفعونى عاليا حتى أخرجونى وسط الصحراء وربطوا عينى وساروا بى ثم أدخلونى أدبخانة (أدب خانة) من بقايا معسكرات الجيش أو ربما الأمن المدنى لقضاء حاجتي.

واستحممت ، وخرجت لم أكن قادرا على فتح عينىّ فى ضوء الشمس، فأجلسونى أمام الأدبخانة ووضعوا أمامى عيش، وحلاوة، وطماطم ، وجبن، وزجاجة ماء.

بعــد الانتهاء من الأكل حملت ما تبقى معى مع وعد بالفتح علىّ فى نفس الميعاد من كل يوم، ولم يناقشنى أحد، ولم أفهم مصيرى وتذكرت أقفاص الأسود فى حديقة الحيوان.

رجعــت إلى الخندق غير مرعوب ولا خائف// ولكن ربمـــا تحسب أننى أنتظر تلك الفرصة التى جعلتنى صالحا ولم تلق بى إلى الدفن بالصحراء فى خنادق عميقة نهائيا ،// ولكن الأمــر لا يحــتاج إلى تفكير فكل شيء مثل كل شيء، وأبيض الشـــيء أسوده، وانتهت الماركسية إلى المطالبة بعالم الرفاهة، والمكتسبات الدائمة، والسماح بالملكية، والتعدد الثقافى والتحلل فـــى كــل شيء، فهكذا تساوت مع عدوتها الفكرية وإن كانت عدوتهـــا الفكـــرية قائمـــة على ما يشبه الأفكار، لهذا كان ذلك السقوط المدوي، الذى كان لابد أن يحدث من سنيين ماضية فى إطار النقد الذاتى من تحول المثالية عند هيجل والتى بنى عليها مـــاركس تنظـــيراته / داخـــل مخطوط رأس المال وكان كتابا لصديقه إنجلز حتى يستطيع أبوه أن يدير رأس ماله فى دورته

الصـــناعية دون توقع ضغوط عمالية مفاجئة / أن يتحول عند لينيـــن إلى مادية جدلية، (كيف يا ناس؟؟) من هنا فقد المجتمع نظامـــه فأصـــبح فوضى ، إذن لا فلسفة لهذا المجتمع ، وهنا يصـــعب رصـــد حالته وقيام ثورة مناهضة ، فالثورة مناهضة لـــنظام معيـــن وليست مناهضة لفوضى / وطالما أصبح القيام بـــثورة أمـــرا مســـتحيلا فـــالحلم بأى شيء ممتنع/ وطالما أن المجتمعات أصبحت هكذا فلابد أن تنهار ويتوقف تاريخها لأن التاريخ يرصد لنا الآتي، وآليات الانهيار من موقع ثابت لنظام ما تقريبا، لكن عندما يصبح كل شيء منهاراً - فلابد أن يتوقف التاريخ، إذن يتوقف التاريخ ، وتختفى الفلسفة ، ويمتنع الحلم، ولا يوجـــد أى مـــنطق للحلـــم حتى بثورة ، وتصبح المؤسسة والهيـــئة هى الشكل ، والمضمون يومى يمكن أن يسقط فى أى وقت ولا تحلم له بمستقبل ولا تستطيع أن تبوح.

لا أهـــتم بعدّ الأيام أو الشهور التى تمضي، لكن كنت جالســـا القرفصاء واضعا رأسى على ركبتىّ فى داخل الخندق رحم الأرض، راضياً تماما ولا أفكر فى أى شيء، فأنا أعيش يوماً واحداً طويلاً ، لكن لم أعد أتذكر الأصدقاء وتسقط الأسماء والحـــوادث كأنمـــا حفرة كهوة سوداء سحيقة منصوبة كشرك وســـط الذاكرة ، تتصيد ترتيب الحوادث فتقطع حبل التواصل فـــأقف تائها وسط الذاكرة يحيط بى الضباب، وتبدأ الذاكرة فى الـــتحلل مـــثل نسيج من التريكو تم فك آخر غرزة فيه، فبشدة واحـــدة يـــتحول النســـج إلـــى خيط غير مترابط كما تتحول

المعلومـــات إلى حروف يصعب تكوين شيء مفيد أو غير مفيد منها.

عندما خرجت لقضاء حاجتى سألت الذى أصبح مشفقا على متى تنتهون مني؟

قال: عندما لا تصدر لنا الأوامر بالمرور عليك.

عندما أرادوا إنزالى بعد عصب عينىَّ ، أحسست بروح ابتســامة أعــرفها وأخــاف مــنها مددت يدى أعطانى الوردة الحمراء الطويلة الساق ووضعتها فى جيبي، بعد إنزالى تركوا الــباب العلوى مفتوحا فأخرجت الوردة وتأملتها كانت أوراقها كــالجلد مكتوب عليه كتابات كثيرة، أخذت أتأملها ثم بدأت فى قــراءتها //كــان يقف على باب الكون يمسك بيده وردة كبيرة بساق طويلة...../\/

أدلوا لى الحبل وتركوه

//بســاق طويلــة لها تويج كبيرو كثير الألوان ، ولها رائحة مستقبلية...//

نمت ، وصحوت ، كان الخندق قد اتسع فاكتشفت أنهم نقلونى إلى حجرة لها باب ، ولكننى جلست فى الركن وأخرجت وردتى ووجهى إلى الحائط.

//وكــان ينظر إلى البعيد ويبتسم لشيء ما بينما تدوى خلفه طبول الآخرة....//

ازداد الطرق على الباب ثم دخلت مجموعة لم أعرفهم،

ـــــــــــــ نحن أصدقاؤك القدامى ربما لا تذكرنا كنت معـــنا فـــى مركز الأبحاث، قبل مرضك والآن تم السماح لك بالخروج،

هززت رأسى لهم ولم أعرفهم ،

ــــ والهيئة .. المؤسسة وعبد العال؟

لـــم يجبـــنى أحد منهم كأنهم من بلد آخر، كنت أود أن أقـــول شـــيئا أو أتذكر شيئاً جميلاً سُرق من حياتى قد دمرنى مرتـــبط هـــذا الشيء بعاطفتي ولكن واجهتني ذاكرتى بمساحة بيضاء تماما غير مدون عليها أى شيء فصمت.

كـــان بـــودى أن أقول كتعيين لما هو حادث/ وانطلق الـــرجال إلـــى الغابـــات لينضموا إلى الثوار والفارين بانتظار اللحظة بعد تنظيم صفوفهم،/ ولكن نحن كذابون وبلادنا ليس بها غابـــات، وأنها مكشوفة كعورة الماعز لا تتيح الحركة لحرب عصـــابات لعمـــل فدائي، ولا يوجد من يحمل السلاح عاشقا ، والـــناس ما عادت تصدق اليوم الآتى إلا من رحم ربي لهذا كان بودى أن أعبر إلى الجهة الأخرى بهدوء، وأمد يدى بكومة ملابســـى بعـــد خلعها من تحت عقب الأيام مزيحها إلى الجهة الأولي، وأن يجد الأحبة فى ملابسى هيئتى ، وأنام أتفرج عليهم فى الجهة الأخرى ولكن كيف ؟ وعموما حاولت فأعادونى إليهم بالحـــب والحنيـــن والدمـــوع والدعاء فارتجت السماء فتداعى الحائط بين الجهتين وأعادتنى الدعوات فأنا دعوة آبائى وأهلي،

دعـــوة لهم وليست عليهم لهذا استدرت وجلست بالركن وجهى للحائط ومعى وردتى واستأنفت القراءة.

// بينما تدوى خلفه طبول الآخرة على بوابة الجحيم ، بـــدوى مدبـــب يدخـــل فـــى عمق كل الأشياء باختراق عظيم مؤلم...

صلاح والي٦/٦/٩٩

٢٠٠٢/١/٤

صدر للمؤلف

الرواية

١- نقيق الضفدع	رواية	١٩٨٨	الهيئة العامة للكتاب
٢- ليلة عاشوراء	رواية	١٩٩٢	روايات الهلال
٣- عائشة الخياطة	رواية	ط١ ١٩٩٦	مختارات فصول
		ط٢ ٢٠٠٢	مكتبة الأسرة
٤- كائنات هشة لليل	رواية	٢٠٠١	أصوات أدبية هيئة قصور الثقافة
٥- الرعية	رواية	٢٠٠٢	اتحاد الكتاب

الشعر:

١- تحولات في زمن السقوط	١٩٧٨	هيئة الكتاب
٢- تداعيات العشق والغربة	١٩٨٨	إشرافات/ هيئة الكتاب
٣- من أين يأتي البحر؟	١٩٩٠	دار الغد
٤- الغواية	١٩٩٢	سعاد الصباح
٥- الرؤيا والوطن	١٩٩٥	أصوات أدبية
٦- على باب كيسان	١٩٩٢	مسرحية شعرية الهيئة العامة للكتاب النشر العام